

مجموعة قصصية

سُلُوفَان

بقلم:

د/ عمرو منير محمد

اسم الكتاب: سلوفان

المؤلف: د. عمرو منير محمد

التصميم والإخراج: محمد علي هاشم

رقم الإيداع: ١٥١١٠ / ٢٠٢٤

الترقيم الدولي: 1 9461 02 977 978

طبع بمطابع دار المعارف

إلى الأهداء:

عالمٌ صاخبٌ
دائمُ التَّغْيِيرِ
مملوءٌ بحكَايا مساكينِ البشرِ
في أزمانٍ متعاقبةٍ!

(شُكْرٌ وَتَقْدِيرٌ)

- أَتَقَدَّمُ بِخَالصِ الشُّكْرِ وَالتَّقْدِيرِ لِمَنْ دَقَّقَ هَذَا الْكِتَابَ
وَرَاجَعَهُ لُغَوِيًّا الشَّاعِرُ / مُحَمَّدٌ فَارُوقٌ ، وَلِلصَّدِيقِ الْعَزِيزِ
أُ/ أَحْمَدُ السَّيِّدِ لاختيارهما للأبيات الشعرية التي سَبَقَتْ كُلَّ
قِصَّةٍ فِي الْمَجْمُوعَةِ.

- لِلْفَنَانِ الْأَسْتَاذِ / سَعِيدِ بَدْوِيِّ الَّذِي صَمَّمَ الْغُلَافَ وَالرَّسُومَاتِ
الِدَاخِلِيَّةِ بِرِيشَتِهِ الْفَنِيَّةِ.

- وَلِلْفَنَانَةِ / شَيْمَاءَ شَاْفَعِي الَّتِي قَامَتْ بِإِضْفَاءِ اللَّمَسَةِ
الْجَمَالِيَّةِ بِالْوَانِهَا الرَّاقِيَّةِ.

- ثَمَّ لِلْكَاتِبَةِ الْقَدِيرَةِ د/ قَدْرِیَّةِ سَعِيدٍ ؛ الَّتِي أَسْعَدَتْنِي
بِتَعْقِيبِهَا عَلَيَّ الْمَجْمُوعَةِ.

لا تأخذ الحياةَ بجديةٍ؛ حاول دائماً أن تتعاملَ
معها بسخريةٍ سيبدو الأمرُ مُسلِّياً.
صدَّقني إذ ارْكُزْتَ معها أكثرَ من اللازم؛ لن
تُرى إلا الحقائقَ المُفجعةَ، التفاصيلَ الكئيبةَ
القاسيةَ حدَّ الجنون!

سعيد روستاي
كاتب ومؤلف إيراني

(دام عَزَّكَ يا وطن)

وَطَنٌ وَلَكِنْ لِلْغَرِيبِ وَأُمَّةٌ
مِنْهُمْ الطَّغَاةُ وَمَلْعَبُ الْأُضْدَارِ

سليم الخوري
«الشاعر القروي»

(١)
دام عزك يا وطن

إهداء: "للبحار صديق العمر"

وقفَ (أَبُو الْحَمْدِ) هذا الرجلُ الخمسينيُّ العُمُرَ، والمُمْتَلئُ
الجَسَدِ بقامتهِ المتوسطةِ، وبَشَرَتِهِ السَّمَاءِ القمحيَّةِ على
مدخلِ تلكِ المدينةِ الحديثةِ البناءِ في هذهِ الدولةِ الخليجيَّةِ،
وهو يرفعُ علمها في حماسٍ واضحٍ.
لم يكنْ وحيداً...

تجمَّعَ حوله العديِدُ من المواطنينِ بأعدادٍ غفيرةٍ، والذين
خَرَجُوا يحملونَ نفسَ العلمِ ؛ حيثُ يحتفلونَ بافتتاحِ المدينةِ
التكنولوجيَّةِ الحديثةِ، والتي أنشأها هذا الأميرُ الشابُ المقعمُ
بالحماسِ من أجلِ نهضةِ شعبه ودولتهِ الفتيةِ.

تجمَّعوا من أجلِ الاحتفالِ، وتحيةٍ للأميرِ الذي سيُزورُ
المدينةَ اليومَ؛ فَهُمْ أرادوا أنْ يشاركوه فرحتَه بهذا الإنجازِ
التاريخيِّ.

الأعلامُ ترفرفُ خفاقةً مع هواءِ الصباحِ الباردِ في هذا الطقسِ
الشتوي المعتدلِ وسطِ الصحراءِ التي تحملُ في أحشائها تلكِ
المدينةَ الوليدةَ.

أخذ (أبو الحمد) بصوتٍ عالٍ يرددُ بشكل متواصل بشكل مُلفتٍ وسط الحاضرين ولكنه الخليجية المميزة..

”دام عزك يا وطن... دام عزك يا وطن” الجميع التفت إلى هذا الرجل المختلف عنهم سنًا وشكلًا؛ حيث إن معظمهم من الشباب المتحمس لهذا الأمير الشاب، وثورته الوطنية الساعية إلى الحداثة.

لم يكثرث (أبو الحمد) لهؤلاء الشباب الذين يحملون فيه، ويندهشون من تواجده في تظاهرات تأييد شبابية للأمير شاب!

نظر أحدهم إلى (أبي الحمد)، وتحدث معه في ريبة:

هلا يا شيخ بارك الله فيك... كلك حماس ما شاء الله...

أدرك (أبو الحمد) سبب اندهاش الشاب بسبب سنّه، والذي لا يتناسب مع حماسه المفرط. حاول أن يُقنِع الشاب بأن ما يقوم به بناءً على قناعة واضحة فطلب منه أن يأخذ له صورة بكاميرا الموبايل وهو يحمل العلم وهو يرفرف فوقه ليجعلها صورة خلفية في صفحته على موقع “الفيسبوك”.

يبدو أن موكب الأمير قد اقترب

تجمعت قوات الحرس الملكي حول التظاهرة، وبدأوا في ترتيب وقوف المواطنين في صفوف على جانبي مدخل المدينة حتى يظهروا بالشكل اللائق، والذي قد تلتقطه عدسات

كاميرات الصحافة العالمية التي تتابع عن كثب إنجازات الأمير الشاب.

بدأ ضابطُ الحرس الملكي بقامته الطويلة، وزيه الزيتي المميز، وقبَّعته الخضراء يتفحصُ الجموعَ الغفيرة المنتظرة قدوم الأمير الشاب؛ فهو المشرفُ على تأمين الموكب.

مرَّ تدريجياً بنظره على الجمهور بنظارته الشمسية. تفحصَ الوجوه المتراسة المتلاصقة أسفل الأعلام المنتشرة. توقف فجأةً عند هذا الرجل الذي يهتف بحماسٍ وسط الشباب!

وبنظرة أمنية سريعة أشار إلى أحد الجنود، والذي توجهَ على الفور نحو (أبي الحمد)، وطلب منه السير معه إلى رئيسه في الحرس الملكي. ارتعد الرجل من هذا الطلب المفاجئ فخاطبه في خوف!

شو سويت أنا..؟

أنا بحتفل بالوطن... "دام عزك يا وطن... دام عزك يا وطن"

شعر المحيطون بالرجل أن شيئاً غريباً يحدث حولهم. بدأت ضربات قلب (أبي الحمد) في التسارع بعد أن اتجهت أنظار الجمهور نحوه، وقد تشكك أحدهم منه من قبل بسبب سنّه وحماسه المفرط غير المبرر خشي (أبو الحمد) في هذه

اللحظة أن يُقدِّم أحدهم على الفتك به. لم يدُم قلقه طويلا حيث جذبَه الجنديُّ من وسط الجموع بسرعةٍ لتنتهي معه نظراتُ الشكِّ والريبة.

– وقفَ الرجل أمام الضابط.

تفحصَه بدقةٍ ليدرك بحسِّه الأمنيَّ أنَّ ملامح الرجل لا تنتمي إلى دولته الخليجية العربية المميّزة بالرغم من زيه الوطني حيث كان يرتدي جلباباً أبيض، ويحمل على رأسه "القحفية" أسفل "الغُترَة". طلب الضابط من الرجل أن يريَه بطاقة هويته... ليتأكد حسُّه الأمني.

خاطبه في هدوء...

– اسمك "أبو الحمد محمد عبد السميع" يا رجّال... مقيمٌ ولستَ مواطناً صحيح..؟

ردّ أبو الحمد في خوفٍ: نعم حضرة الضابط.

– يا أبا الحمد: ممكن تخبرني ما الذي جاء بك إلى تجمع شبابي يتظاهر حبا للأمير؟
ردّ أبو الحمد في بديهية..

– إيش اللي يمنع حضرة الضابط إنني أتظاهر حباً في الأمير؟

– اللي يمنع إنك مقيم... ما يفرق معاك الوطن، ولا الأمير.

ردّ عليه (أبو الحمد) في سرعة أثارت دهشة الضابط...

أنا مقيم حقا، ولكني مؤمنٌ بهذا الوطن مثلي مثل أي مواطنٍ

مجنّس بجنسِيّته. هذا الوطن "لحم كتافي من خيره"، وفضله عليّ، وعلى عائلتي "لا أنكره ما حييتُ، ووجودي في التظاهرة هو فقط عرفانٌ بحبّ هذا البلد الناجح الذي احتضنني بعد أن سافرتُ من بلدي الأصليّ بسبب ظروف الصعبة هناك، وأوضاعه غير قابلة للحل.

يا "بختكم بالأمير"، ويا بختكم بهذا الوطن المنظّم، والناض بالحيوية، والعطاء. شعر الضابطُ بصدق كلام (أبي الحمد) فأعطاه بطاقة الهوية الخاصة به ليعود (أبو الحمد) على الفور إلى التظاهرة حاملاً علم الدولة الخليجية، وهو يرفرفُ خفّافاً وسط الأعلام المنتشرة مردّداً بصوت عالٍ.

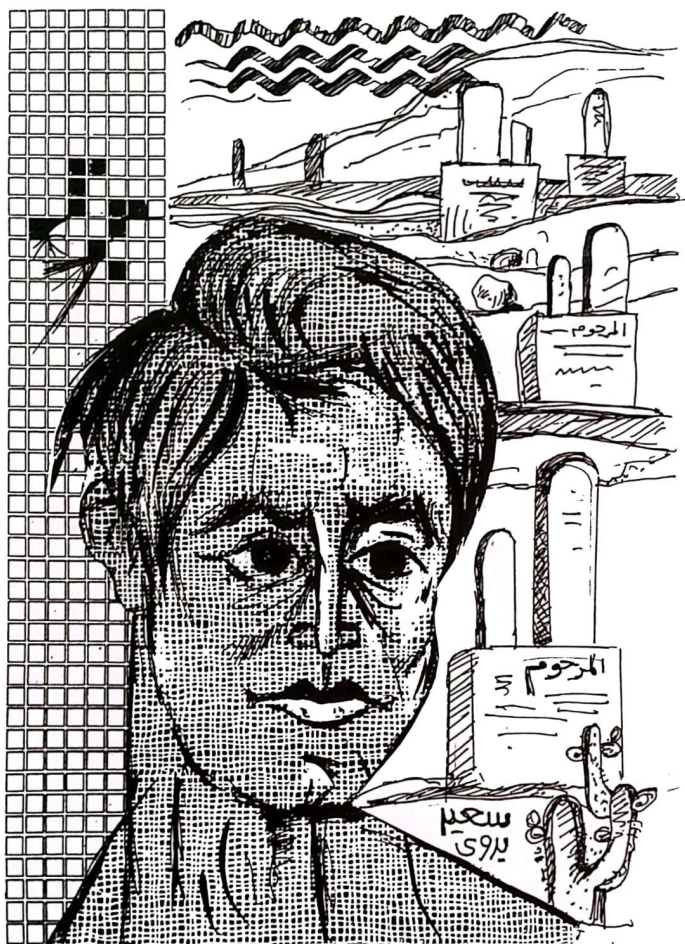
دام عزك يا وطن... دام عزك يا وطن

تمت

(اعذراه فقد نسي...)

لا تَسْأَلْ عَنْ سَلَامَتِهِ
رُوحُهُ فَوْقَ رَاحَتِهِ
بَدَّلَتْهُ هُمُومُهُ
كَفَنَّا مِنْ وَسَادَتِهِ

ابراهيم طوقان



(٢) (أعذراه فقد نسي...)

لم يُفتح هذا القبر الأثري منذ عقود، والمزَمع فيه دفنُ والدي خلال أيام..!

سمعتُ من والدتي أن آخر من دُفِنَ فيه من أفراد العائلة كان الجدُّ الأكبر "بيدرو"، والذي قضى نحبَه في خمسينيات القرن العشرين بعد صراع طويل مع مرض السرطان بعد وقت طويل من مشاركته في حرب "إسبانيا" الأهلية، والتي أحدثت شرخاً عميقاً في نفسه.

أنا كحفيد لعائلة "إسبانية" لم أرَ وطننا الأم قط فقد ولدتُ في "نيويورك" الأمريكية بعد هجرة والدي، ووالدتي من "مدريد" بعدما ضاق بهما الحال هناك.

كعائلة مسيحية كاثوليكية متدينة مازلنا متمسكين بعادة دفن موتانا في قبور العائلات ليجتمع شملنا مع أجدادنا بعد أن نفارق الحياة. لم أقتنع بكل هذه المعتقدات فعلي في مجال الفيزياء علمني احترام الأرقام والمعادلات القاطعة الجازمة بعيداً عن الانتماءات الاجتماعية والعرقية أو حتى الثقافية. فطالما آمنتُ بأنَّ العالمَ محايدٌ كذلك يجب أن يكون البشرُ

مهما اختلفت انتماءاتهم، وأصولهم.
الرحلة طويلة، ولكن هكذا كانت وصية أبي. أن يُوارى
الثّرى في قريته الصغيرة الجبلية على أطراف مدينة
"غرناطة".!

لم أفهم كيف يمكن أن يعتقد إنسان بأنه بعد موته وصعود
رُوحه إلى السماء سيستطيع التعرف على أقاربه وأجداده ممن
سبقوه وهم قد تحوّلوا إلى عظام بَقِيَتْ وصمدت عبر السنين
داخل التوابيت المحكمة الإغلاق.

سافرنا أنا وأمي وأبي على نفس الطائرة المتجهة من
"نيويورك" الأمريكية عبر المحيط إلى موطننا الأم، ف لأول مرة
سأرى بلدة أبي وأجدادي. ها نحن كعائلة سافرنا أخيرا سويا،
ولكن الفارق أن والدي كان في صندوق أسود في باطن الطائرة
"الإيرباس" العملاقة مع حقائب المسافرين وبعض البضائع
المرسلة إلى أوروبا من بلاد العم سام.

وصلت السيارة بعد السفر لساعات فركبناها أنا وأمي والجدان
في الخلف من العاصمة إلى ولاية "غرناطة" لنصل إلى قريتنا
الجبلية الصغيرة حيث كان في انتظارنا العم "سيمون"، والذي
لم ينقطع التواصل بينه، وبين والداي منذ مغادرتهما "إسبانيا".
مشهد اللقاء بينهما كان دراميا بمعنى الكلمة فور أن رآته
أمي ركضت نحوه بأرجلها التي تنتشر بها الهشاشة في

خَفَّةٌ عجيبة ليرتمي في حضنها كأُمٍّ وجدت طفلها الضائع ،
وتنهار دموعُهما بعد أن تذكّرا والدي خاصّةً عندما نظرتُ
إلي أُمِّي لتسحبني من يدي لأتعرّف على عمي أو بالأحرى
والدي الجديد كما هي العادة في تلك القرى التي تقدس التراتبية
العائلية.

أعدّ عمِّي كلّ شيءٍ تقريبا. أشار إلى سائق السيارة التي
تحمل جسد والدي ليتبع سيارته الصغيرة العتيقة ، والتي
تحرك بها نحو أطراف القرية حيث مقابر العائلة التي تسكن
هذه القرية منذ قرون ظهر في الأفق القس الذي سيقم الصلوات
بلباسه الأسود المميز تحيط به مجموعة كبيرة من أفراد العائلة
والأصدقاء الذين لا أعرفهم.

أنزلنا الصندوق الأسود بعد أن أُنْفُتِحت المقبرة بواسطة
حانوتية المكان بينما يتم الحفر بعد رفع الشاهد الحجري
الجاثم على قاعدته... شعرتُ بكفٍ ناعمةٍ تحيط بيدي
اليمنى... التفتُ إلى صاحب هذه القبضة الملساء لأجدها يدَ امرأةٍ
ثلاثينية العمر بقوام طويل ، وشعر فحامي اللون وملابس سوداء
طويلة محتشمة. سارع عمي لتعريفي بها.. إنها "إزابيلا" ابنته
الوحيدة الأرملة التي فقدت زوجها منذ شهور في حادث سير
ليتركها وحيدةً مع والدها دون أطفال يملأون عليها حياتها
في تلك القرية المملة.

سألتُ نفسي بينما أنظر إلى عينيها الواسعتين اللتين
تفيضان بالحزن. كيف ترضى حسناءً مثلها بالعيش هنا تاركةً
أجواء المدن الصاخبة..؟!
هكذا هو الريف يشكُّ الإنسانَ كصلصال لا يتحمل البعد
عن صانعه.

انتهى الحفر بنداء الحفار بصوته العالي للعم "سيمون"
حيث فوجئ الجميع بوجود توابيت متجاورة يتصدرها تابوتُ
خشبي أسود بمقبض نحاسي صديء مكسور قفله بشكل واضح مع
خدوش على سطح التابوت المصنوع على شكل الصليب المعتاد.
عريض في الأعلى وضيق في الأسفل.!

هبط عمي إلى التابوت ليتأكد من محتواه الذي يبدو أنه
تم نبشُه بعد وفاة صاحبه. طلب العم "سيمون" مني الهبوطَ
معه إلى قلب المقبرة العائلية فقد قرر فتح التابوت المنبوش،
ويجب أن يساعده في ذلك فردٌ أصيلٌ من أحفاد هؤلاء الموتى.
اندهش الجميع من سلوك عمي المذعور. طالبه القسُّ بأن يترك
التابوتَ وشأنه؛ فمن المؤكد أن صاحبه قد تحلَّل كلياً، وأصبح
نسيئاً منسياً!

لم يكثر ثُ عمي لرأي القس، والحضور ولا حتَّى لرأي
"إيزابيلا" ابنته؛ فرأسُ والدها صلبة لا تلين لأي رأي لا
يتوافق مع هواه. بدأت أنا وعمي في رفع غطاء التابوت الخشبي

الذي لم يُفتح بسهولة فمن الواضح أنه مغلق منذ أكثر من قرن تقريباً. استعان عمي بالحنوتية بعد أن وجدني غير كفٍ لهذه المهمة الخشنة بالنسبة لمدرس فيزياء. أخيراً تمكّنوا من رفع غطاء التابوت. اتسعت أعينُ العم "سيمون"، والحنوتية بعد أن لاحظوا شيئاً ما داخله لم أفهمه؛ فكل ما تمكّنتُ من ملاحظته هو مجموعة من الكلمات المكتوبة بالإسبانية بخط كبير، وواضح على قماش الكفن الأبيض.

أمر العم فوراً الحانوتية بغلق التابوت. نادى القسُ بصوت عالٍ علينا من أعلى الحفرة سائلاً: هل الجثمان موجودٌ في التابوت..؟

رد العم بالإيجاب، وبصورة طبيعية بدأ الحانوتية في إنزال التابوت المجهّز لدفن والدي ليُوضَعَ بجوار باقي توابيت العائلة، ويُعاد غلقُ المقبرة مرةً أخرى، وتنتهي مراسم الجنازة، ومعها يوم شاق لنعود جميعاً إلى منزل العائلة. مرَّ وقت طويل على وفاة والدي، وهذه الرحلة الغريبة لهذه الأرض القديمة، وهذا الحوار الشائك الذي دار داخل منزلنا الخشبي القديم بين أفراد العائلة، ونتج عنه تغيير مجرى حياتنا. ها أنا الآن أعمل مدرّساً للفيزياء في إحدى المدارس الدولية في المدينة المقدسة "مكة" حيث أعدتُ عائلتي لاعتناق الإسلام وتزوجتُ "إيزابيلا" التي اعتنقت الإسلام أيضاً بعدما

رأيناه أنا وعمي داخل التابوت المنبوش ، والذي قد تم تغييرُ
وضع الجثمان فيه لوضع مقلوب في اتجاهٍ محدّدٍ اتضح أنه اتجاهُ
مدينة "مكة "، وكُتِبَ على الكفن...
"يا مُنْكَرُ ، ويا نكيرُ أعْذُرَاهُ فقد نَسِيَ أَنَّهُ
مُسْلِمٌ..!"

تمت

(قبر دهب..)

فارق أحبابه فما انتفعوا
بالعيش من بعده ولا انتفعا
كان عزيزا بقرب دارهم
حتى إذا ما تباعدوا خشعا

علي بن الجهم

شاعر عباسي



(٣)

(قبر ذهب)

جلسَ القُرفُصاءَ هذا الشيخُ السبعينيُّ العمرَ " حمدون " ككومةٍ من العِظامِ المتقاطعةٍ مع بعضها البعض في أحدِ جوانبِ الصندلِ الحديديِّ، والذي أمتلأ عن بَكْرَةِ أبيه بالبشرِ والحيواناتِ المتلاصقةِ مع بعضها البعض كطوفانٍ (نوح عليه السلام). حملَ الأهالي ما يستطيعون حملَه من الأغراضِ؛ فالرجالُ بجلابيبهم البيضاءِ الفضفاضةِ يمسكون بالحصيرِ المتعددِ الألوانِ والأغطيةِ؛ بينما النساءُ المتشحاتُ بالسَّوَادِ؛ تحملُ بعضهنَّ أقفاصَ الطيورِ على رؤوسهنَّ، والبعضُ الآخرُ يَحْمِلُنَ صفائحَ الحبوبِ؛ والتي ستكونُ القُوَتَ الوحيدَ لَهُمُ حتى وصولهم إلى موطنهم الجديد؛ حيثُ تستغرقُ الرحلةُ يومينَ على الأقلِّ في قلبِ النيلِ القديمِ. ! نظرَ (حمدون) إلى النهرِ الممتدِّ الأزرقِ، والذي يلامسُ الصحراءَ المخضبةَ بالخضرةِ على استحياءٍ.. تذكرُ تلكَ الليلةَ المشهودةَ في قريتهِ، حيثُ تجمَعُ أهلها كيومِ الحشرِ على التلالِ العاليةِ المطلَّةِ على النخيلِ المحيطِ بمنازلِ القريةِ الملوَّنةِ من كلِّ الجوانبِ ليودَّعَها الوداعَ الأخيرَ. لم يَنَمْ أحدٌ ليلتهُ إذ كانتِ الأبصارُ

شاخصةً وهم ينتظرون موعدَ تنفيذِ الحُكم... ! انتصبَ الشيخُ
من جلسَتهِ مُتَّكِأً على عصاهُ الخشبيةِ المصنوعةِ من خشبِ
(الزَّان)؛ لِيبدأَ في رحلةِ البحثِ في هذا الصنَدلِ الحديديِّ عن
أصدقائهِ مِنَ القريةِ بالرُّغمِ مِنْ وَحدَتِهِ مُنذُ وفاةِ زوجَتِهِ (دهيبه)
مُنذُ عَقْدِ مِنَ الزَّمانِ إِلَّا أَنَّ أَهْلَ القريةِ جَميعَهُمْ كانوا بِمِثابَةِ
الأهلِ لَهُ وَلَمْ يُشْعِرُوهُ بِتِلْكَ الوَحْدَةِ القاسيةِ. ! صَوْتُ عالٍ يَقْطَعُ
أَنفَاسَ البَشَرِ والحيواناتِ المِختلِطَةِ صَدَرَ مِنْ مَوْظِفِ التَّهْجِيرِ
القاهريِّ القَصرِ القامَةِ، والممتلئِ الجوانبِ التي تَكاوُدُ تَظْهَرُ مِنْ
أطرافِ بَدَنِهِ الصِيفِيَةِ ذاتِ الأَكمامِ القَصرَةِ، والجيوبِ الكثيرةِ
بَدَأَ يُنادي على راكبي الصنَدلِ بِصَوْتِهِ الجَهْوَريِّ... وبشكلِ
رُوتينِيٍّ أَخذَ يُحْصِي الأَعْدادَ المَوقُولَةَ على سَطحِ الصنَدلِ إلى
أرضِ الشَّلالِ؛ حيثَ تَنتَظِرُهُمُ هُناكَ سِياراتٌ نَقَلَ ضِخْمَةً؛
لَتَنقَلَهُمْ إلى قُرَاهُمُ الجَديدةِ في صحراءِ (وادي الجنِّ أو وادي
جَهَنم) كما أَسَمَوْها أَهْلُ القريةِ مِنْ شِدَّةِ حَرارَةِ الجَوى هُناكَ
والمِختَلَفِ تاماً عَنْ قُرَاهُمُ الأُمِّ والتي تَسِيتوي في الوادي بَينَ
النَهرِ والخِضارِ والصحراءِ... وَقَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ المَوْظِفَ في الإحصاءِ
كَرَّرَ على الجَميعِ شُكْرَ قِيادةِ البَلَدِ للأهالي لِمَا يَقومونَ بِهِ مِنْ
تَضَحِيَةٍ في سَبيلِ الوَطَنِ. لَمْ يَتَأَثَّرْ أَهْلُ القريةِ بِتِلْكَ العِبارَةِ
الإِنْشائيَةِ، والتي اعتادُوا على سَماعِها صُراخاً في كُلِّ مَكانٍ
فَتِلْكَ الطَّنْطَنَةُ بالوَاجِبِ لَمْ تُجَدِ مَعَ هَؤُلاءِ مِمَّنْ فَقدُوا بَيتَوتَ

الآباء والأجداد؛ التي عاشوا فيها منذ آلاف السنين. ! بالإضافة إلي أنها لم تعد ذات فائدة؛ فالقَدْرُ نافذٌ لا محالة، ورحلة الهجرة قد انطلقت كالقطار بلا عودة. أنهى الموظف خطابه بتبليغ الأهالي أنَّ الرئيس (جمال عبد الناصر) والذي كانت صورته بتحيته الشهيرة تنتشر في أرجاء الصندل يعلمهم بأنه شخصياً يثمن تضحيتهم، وأنه يهتم لحالهم في قراهم الجديدة، والتي ستكون مجهزة بكل شيء ضروري لهم؛ حتى يعودوا مرة أخرى إلي ضفاف البحيرة الوليدة بعد زمن.. عدد هذا القاهري أسماء الأهالي واحداً واحداً والذين من فرط الزحام تتلاصق رؤوسهم بدوائر سوداء متماسكة مع بعضها البعض تخفي العديد من الوجوه أسفلها. تذكر (حمدون) هذا المشهد والذي تكرر أمامه أكثر من مرة وقت طفولته ووقت شبابه حيث تم نقل العديد من أهل القرى المجاورة سابقاً لنفس الغرض تقريباً إنشاء خزان أسوان الضخم لحجز المياه لم يجل بخاطرهم أنَّ الدور سيأتي عليه وسيتحول هو إلي مهاجر كالمهاجرين.. رد الجميع ممن تواجدوا على ظهر تلك الباهرة الحديدية بالإيجاب؛ تأكيداً على حضورهم في تلك الرحلة الثقيلة الوطء على القلب. استغرقت تلك العملية أكثر من ساعة وذلك القاهري يُعدّد أسماء أهل القرية. صوته بالكاد يُسمع وسط تلك الأصوات المتنوعة لكافة المسافرين على سطح

الصندل الحديديّ الضيّق ممثّلةً في طبقاتٍ متعددةٍ ومتداخلةٍ من الأصواتِ الصادرة من الرجال والنساء والأطفال المكدّسين بجوار بعضهم البعض كعلبةٍ سردينٍ منتفخةٍ بالإضافة إلى صوت قرع الشباب للدُفوفِ المصنوعة من جلد الماعز المشدود على أطر خشبيةٍ بينما تصدح حناجرهم بالغناء؛ حيث كانوا هم الوحيدون تقريباً السعداء بتلك الرحلة، والتي أضحت بالنسبة لهم بدايةً جديدةً لمستقبلٍ مشرقٍ ينتظرهم. توقف الموظف القاهريّ فجأةً عند أحد الأسماء؛ والتي لم يُجب صاحبها بالإيجاب كالعادة، فكرّر الاسم نفسه أكثر من مرة، وساد الصمتُ سطح القارب دون ردٍّ من أحدٍ...

— ذهب عابدين شاهين (فين يا جماعة).. ؟

التفت الأهالي لبعضهم البعض باحثين عن (ذهب). ذهب هذا الفتى اليتيم الأب والأم والذي فقد أبويه منذ الصغر فأُمّه توفيت أثناء ولادته لينتقل إلي عهدة خاله الذي رباه كولدٍ من أولاده بينما والدّه المغترب يعمل في المحروسة، ويرسل نفقات هذا اليتيم ذهب! في سن الثامنة فقد والدّه أيضاً الذي توفي بعد أن تطوّع في سلاح الهجانة، فأصبح وحيداً في هذا العالم بالرغم من عطف خاله عليه. عرفه الأهالي جيداً بعد أن صار شاباً يافعاً يعمل في صناعة أواني الفخار؛ التي كان خاله يمتلك ورشة صغيرة لها في وسط القرية، وبالرغم من صغرها إلا أن (ذهب)

جعلَ من جدرانِها تُحفَةً فنيةً خلَّابةً، كانت الألوانُ المتعددةُ تُزيِّنُ جُدْرانَها بشكلِ خلَّابٍ مُلفتٍ، حتي الأواني الفخاريةُ أصرَّ أنْ تجدَ من الحُبِّ جانباً، وتزيِّنُ هِي الأخرى للزبائن من أهل القرية لإدخالِ البهجةِ على نُفوسِهِمْ. ولَمَّا كانت تلكَ الفُخاريَّاتُ لازمةً لكلِّ بيتٍ أضحى هذا الشابُّ (دهبُ) مشهوراً بصنْعَتِهِ تلكَ التي ورثها عن خاله و بما يصنُعُ من فُخارٍ يكادُ ينطقُ من فَرطِ جمالِ صنْعَتِهِ. كل ذلك عرفهُ الأهاليُّ عن (دهبِ عابدين) والذي اندهش الجميعُ من غيابه! فكيف استطاعَ الاختفاءَ والهروبُ من موظفي التهجيرِ الذين بحثوا في كلِّ رُكنٍ في القريةِ الصغيرةِ بحثاً عَمَّنْ تَخَلَّفَ عن تلكِ الهجرةِ القسريةِ؟ ردَّ أحدُهُم علي الموظفِ بصوتٍ عالٍ! (دهبِ مركبش معانا الصندل.... محدش شافه من أيام.... يمكن يكون راح على حلفا السودان مع اللي راحوا هناك أو يمكن يكون عشمان إن البحر مش حيعلى زي الجماعة اللي قاعدين فوق.. ناحية الجبل مستنظرين يشوفوا المية حتغرق بيوتهم ولا لأ....)رد الموظف في ضجر.... إيه الأرض اتشقت وبلعته.....

يا جماعة راح فين الواد ده انا كده حتأذي بسببه..؟
تابع الشيخ (حمدون) هذا الحوارَ الدائرَ بين الموظفين والأهالي والذي تحوَّلَ إلي متاهةٍ بلا مَخْرَجٍ فالجميعُ يعرفُ (دهبِ)، و الجميع لا يعرفون أين ذهبَ كَأَنَّ الأرضَ قد

ابتلعتهُ..! لم يتمالك (حمدون) نفسه بعد أن قاومَ نفسه من الرَّد على الموظف؛ لينتصب بجسده الطويل، وملامحه السمراء اللامعة التي تمتلئ بتجاعيد الزَّمن. ! (يا بيه الواد ده انا شفته أول امبارح في القرية.... لكن الشهادة لله الواد ده طول عمره في حاله ومحدث فينا مخالط معاه....و بعدين يا بيه حيروح فين يعني...كلها كام يوم ويظهر...يعنى حيسنتني لغاية أمتي....حيعيش في البلد لوحده ما خلاص كلها شهور والمية تعالى ورا السد والبلد حتغرق زي ما غرقت كل البلاد اللي جنبنا و خدت معاه بيوتنا و دنيقتنا.... مكانوش رفعونا فوق في الجبل زي ما حيرفعوا تماثيل المعبد اللي في ابوسمبل... يعني حتى يا ربي محصلناش الحجارة...هي حتقعد جنب ارضها واحنا نتحشر زي الفروج في الصندل الفقري ده ونتنقل للصحرا... الله يسامحه اللي كان السبب) رد الموظف في غضب علي الشيخ حمدون (يا حج عايز كلام واضح.... دهب راح فين.... الواد ده لازم يظهر بأي شكل يا إمَّا تروحوا كلکم في داهية) بتهكُم ردَّ حمدون فيه داهية أكثر من اللي إحنا فيه....أمال إحنا رايعين على فين يا بيه ما احنا رايعين في جهنم نفسها....) تعالت ضحكات الأهالي على سطح الصندل بسبب كلمات (حمدون)، والتي كانت ضحكًا بطعم البكاء؛ فالهجرة إلي المجهول كانت قاسية، وأقرب إلي مصيبة منها

إلى رحلة عابرة! ! شعرَ موظفُ التهجيرِ بالإحراج من كلمات العجوز، ولم يستطع الردَّ عليه تجنباً لاشتعال فتيل أزمة وسط الأهالي المعبّئين من الدولة التي اضطرتهم إلى تلك الهجرة (والتغريبة). انتظر الموظف حتى يصلَ إلى منطقة الشلال تركَ الصندوقَ مُسرِعاً إلى إدارته في تلك المنطقة النائية حيث مكتبه الصغير الواقع أعلى تبةٍ ترابيةٍ عاليةٍ؛ تطلُّ برأسها على تلك الصحراءِ المختلطةِ بماءِ النيلِ كرأسِ ثعبانٍ منتصبٍ دخلَ مكتبَ التهجيرِ والذي كان خشبيَ الجدرانِ وأشبهَ في حقيقتهِ إلى كشكٍ من مبنى حكومي. بادره زملاؤه بالسلام بينما لم يُعرهم انتباهاً؛ فقد انطلقَ نحوَ التليفونِ الحديديّ ذي القرصِ الأسودِ الدوّارِ والمنفلةِ الصغيرة... بسرعةٍ خاطفةٍ أدارَ المنفلةَ في جانبِ التليفونِ ليطلبَ النقطةَ الأمنيةَ الأقربَ للقريةِ النوبيةِ المسؤولِ عن عمليةِ تهجير أهلها؛ بصوت عالٍ بدأ الموظفُ في مخاطبةِ الضابطِ النوبتجي: يا حضرة الضابط... في حد من القريةِ مركبش الصندوقَ معنا مع أن اسمه في السجلات. رد الضابطُ في هدوءٍ معتادٍ على أمثاله ممن يعملون في تلك الأماكن المعزولة، والتي قد تمرُّ أيامٌ دون حدوث مشاكل أمنية تُذكر: مفهوم ... مفهوم.... جاري البحث عن المدعوِ ذهب عابدين شاهين. تجمعتُ القوةُ الأمنيةُ للبحثِ عن ذهب.... دخلتِ القوةُ القريةَ الخاويةَ على عروشها استعانَ الضابطُ بأحد الخفراءِ العارفينَ

بتلك القرية وبيوتها للوصول إلي الورشة التي يعمل بها
ذهب. لم يكن صعباً التعرف على الورشة فهي كانت أشبه
بزهرة عديدة الألوان من فرط ما بجدرانها من ألوان متنوعة
تتألف في وهج الشمس طاغية على كل ما يحيط بها من بيوت
طينية أصبحت مؤخراً يتامى بعد هجران أصحابها! فتش
الضابط الورشة بعناية، فلم يجد أي أثر لأية رُوح سواء إنساً أو
حيواناً؛ فكان المكان المبهج في شكله الخارجي عارياً تماماً من
أي صنف من صنوف الحياة. انتشر الخفر الباقون بين البيوت
المهجورة عاكفين على إيجاد هذا المتخلف عن الركب المهاجر،
وبعد بحث طويل في أرجاء تلك المنازل المهجورة لم يجدوه.
تفتق ذهن الضابط إلى البحث في أطراف القرية؛ حيث التلال
العالية، والمقابر. وهنا اضطرت القوة أن تتفرق بين التلال،
بينما ذهب قائدُهم مع ثلاثة خفراء إلى المقابر وبمجرد اقترابه
من الجبانة الواقعة في جنوب القرية لاحظ وجود أحدهم
يجلس بجوار أحد القبور اقترب الضابط والجنود بالتدريج في
حذر ممزوج بالخوف اقتربوا أكثر فأكثر ليظهر شخص أسمر
جلباب أبيض، وجسد نحيل يجلس على ركبتيه كمجموعة
من الأخشاب المتراسة.... يحمل شتلة نبات، ويحفر بهمة في
الأرض حتى يزرعها وهو يبكي بجوار قبر عبارة عن شاهدين
حجريين بينهما كومة تراب متدرجة تتناثر عليها حصى

صغيرةً بيضاء اللون كثيرة العدد؛ ليتبينَ عند سؤاله أنه المدعوُّ
”دهب عابدين جاهين“ الذي تخلفَ عن المهاجرين؛ ليجلسَ
بجوار قبر والدته ليودَّعه للمرة الأخيرة في حياته قبل أن
تغمره مياه البحيرة التي ستملأ هذا المكان في المستقبل. !

تمت

(نشاطات)

ومن العار أن نموت حباً في زمن الحرب
هل أحبك؟
لا أحبك!
إذا كان حبك سيستغرق وقتاً أطول من إطلاقه رصاصة على
نخاع شوكتي!

محمود درويش



(٤) (شاشات)

(١)

استيقظ كالعادة من نومه مُثَقَلًا. أخرج يده من أسفل البطانية السميكَة في هذا الشتاء القارس؛ لتُخرِسَ هذا المنبّه الوغد الذي يصرُّ على إيقاظه في تلك الساعة المبكرة من النهار حيثُ موعدُ عمله كمذيع لإحدى المحطات الخليجية الحديثة التأسيس في تلك الدولة العربية الغنية. يعلمُ تمامًا أن دوامه في العمل بالرغم من شهرته في بلده الأم هو الشرط الرئيسي لكي يحصل على راتبه الضخم من العملة الخليجية القوية، والتي يحوّلها إلى وطنه الأم لكي يستطيع الإنفاق على العائلة الكثيرة العدد، والضخمة النفقات!

(٢)

ظهر المشهد مريعًا حيثُ الأهالي يهرّبون من بيوتهم مهرولين بعد أن سقطت عليهم من السماء هذه المطبوعات كغربان سوداء مشؤومة لتعلن بداية الجحيم اليومي المستمر. حمل هذا الشاب القويّ البنيان والدته العاجزة عن الجري فوق

كثفه لسنها الطاعن وتلحق به زوجته الشابة بعباءتها السوداء الطويلة حاملة هي الأخرى ابنها الرضيع ضامّة له بقوة في تجويف صدرها لتهرب هذه العائلة من هذا المبنى الذي سيختفي خلال سويعات.!

(٣)

وصل الشاب متأثراً في الوقت المحدد إلى الجريدة الكائنة في هذا البُرج الزجاجي ذي الأدوار الكثيرة، والتي تضم صفوة مقرّات الصحف، والقنوات الفضائية الخليجية والعالمية. كثيراً ما يصادف زملاءه في العمل في المؤسسات الصحفية الأخرى الذين عمل مع كثير منهم في فترات مختلفة من حياته المهنية السابقة. دخل إلى الاستوديو الخاص بتصوير حلقة لقائه مع تلك الفنانة الاستعراضية الشهيرة، والتي تزور هذه الدولة الخليجية كعلامة على انفتاحها المستحدث على العالم، وعلى غير العادة كان العاملون في الاستوديو يتابعون الشاشات العديدة المنتشرة في كافة أركان المحطة عارضة مشاهد بث مباشر جعلت جميع من في المكان لا يكتفون إلى المذيع الواصل في ميعاده تماماً قبل حلقة البث المباشر، ولا حتى الضيفة الفنانة الشهيرة التي تجلس في مكتب مدير المحطة الخليجي الذي طلب منها الحضور باكراً ليتحدث مع نجمة كان يراها فقط في السماء،

وها هي بشحمها ولحمها تجلسُ أمامه ، وتبادلـه الحديث في
وُدٍّ وانسجامٍ واضحٍ.

(٤)

بدأتِ القذائفُ تتساقطُ على المَجْمَعَاتِ السكنيةِ الحديثةِ
الإنشاءِ كحَبَّاتِ جَمْرٍ مستعرةٍ تُحِيلُ تلكَ المباني اليتيمةَ
إلى أعاصيرٍ متصاعدةٍ من الغبارِ الكثيفِ الممزوجِ بالسنّةِ
اللَّهَبِ؛ والتي هَوَتْ واحداً تلو الآخرِ بينما يلوذُ بالفرارِ
ساكنوها ، ومنهم تلكَ العائلةُ الصغيرةُ.

يبدو أن الوقتَ لم يكن كافياً منذ سقوطِ منشوراتِ الموتِ
فتساقطتِ البيوتُ على رؤوسِ أصحابِها ، ولم يتمكن معظمُهم
من النجاة من هذا الهلاكِ الحتميِّ. !

(٥)

أدرك المذيعُ الشهيرُ سببَ عدمِ اهتمامِ العاملين في الاستوديو
بحلقةِ اليومِ التي تستضيفُ نجمةً عالميةً شهيرةً ؛ حيثُ
تعلّقتِ الأعينُ بهذه المشاهدِ المؤلمةِ من تلكَ المعركةِ المستعرةِ
في قلبِ هذا السجنِ البشريِّ الكبيرِ. كان المشهدُ المذاعُ على
الشاشاتِ يُظهِرُ رجلاً ملتحياً يضمُّ جثمانَ طفلةٍ مقتولةٍ ،
وتُغطي وجهَهَا الدماءُ بينما يبكي والدُها بكاءً يعكسُ قلباً
يحترقُ كالبركانِ. وكغيره من العاملين بالقناةِ لفتَ نظرهُ هذا

المشهدُ الساحقُ للصُّدورِ حتى بدأتْ دموعُهُ تسيلُ على خده في استحياءٍ !

(٦)

لم يُعْجِبْ مَدِيرَ القَنَاةِ تجمهُرُ العاملينِ أمامَ الشاشاتِ الذي استدعى توقُّفَ حركةِ العملِ ، والذي يتابعه من خلال كاميرات المراقبة المثبَّتة في الجدران ليقطع لقاءه الساحرَ بذلك الحُلم القديم ، ويخرجَ من مكتبه بجسده الضخم السمين ، وجلبابه الأبيض الحريريِّ ليأمرَ الجميعَ بالعودةِ إلى عمله بصوته الغليظِ صائحًا : ليعُدُّ كلُّ منكمُ إلى عمله.

مالنَا نحنُ ؛ وتلكَ الأخبارُ الكئيبةُ ؟ أنتم تعملونَ في محطة فنيَّةٍ . "بَدْنَا الناسَ تنبسطُ كفايةَ غمٍ بالله عليكم".

(٧)

بعد أن هدأتْ سُحُبُ الغُبَارِ الكثيفِ المغطِّي للأفق زحفَ الأهالي ممن حالفهم الحظُّ ونجوا من هذا الموتِ المحقِّقِ عبرَ بقايا الرُّكامِ من كافَّةِ الاتجاهاتِ ؛ ليصلُوا لأنقاضِ المباني المنسوفةِ ؛ ربما يجدونَ أحياءَ كَتَبَ اللهُ لهم النجاةَ من بطن هذه العصارَةِ الأسمنتية الممتدة عبر الأفق . وبينما يبحثونَ . ظهرتِ امرأةٌ شابة بعباءة سوداءَ تغيَّرَ لونها إلى لونِ التُّرابِ الذي يغطي شعرها ، ووجهها مختلطًا مع خيوطِ الدماءِ ، وصوتِ

صراخها يملأ المكان بعد أن سقط منها رضيعها، واختفى
زوجها ووالدته بين الجدران المتساقطة.!

(٨)

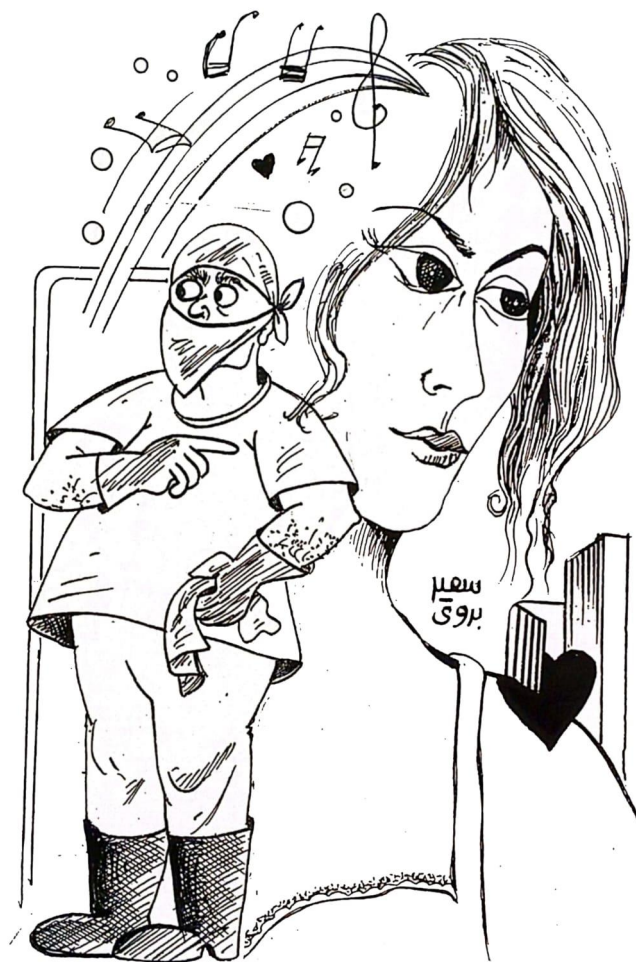
كانت كلمات المدير التنفيذي للمحطة قادرةً على بثّ الحيوية
مرةً أخرى للمكان فتمّ الاستعداد للحلقة المثيرة، والتي تبشّر
تلك القناة بإذاعتها منذ أسابيع. دخلت الفنانة الاستعراضية
الشهيرة بخطواتٍ متمائلةٍ إلى أستوديو التصوير الضخم بعد أن
أضاف "الماككير" الخاصُّ بها اللمسات الأخيرة من مساحيق
التجميل على وجهها الأبيض اللامع، وأعاد تصفيف شعرها
الذهبي الطويل بينما جلس أمامها المذيع المتأنق بعد أن غسل
وجهه وعينيه من تلك الدموع السخينة المؤقتة التي نتجت
عن مشاهدة تلك القناة الإخبارية الخليجية الشهيرة معلناً على
الهواء بدء الحلقة المثيرة المنتظرة.!

تمت

(بَابُ خَلْفِي)

بَلَى أَنَا مُشْتَاقٌ وَعِنْدِي لَوْعَةٌ
وَلَكِنْ مِثْلِي لَا يُذَاعُ لَهُ سِرٌّ

أبو فراس الحمداني



(٥) (باب خلفي)

صوت صافرةٍ متقطعٍ يترددُ بشكل ميكانيكيٍّ عالٍ يصدرُ من
جهازٍ مربعٍ الشكلٍ عليه شاشةٌ تعرضُ أرقامًا متنوعةً...
الجميعُ ينظرُ إليها في خوفٍ فكلُّ رقمٍ منهم يعبرُ عن حالةٍ
هذا الجسدِ الراقِدِ أمامهم وهو أقربُ للتمثالِ الشمعيِّ منه
للإنسان.

بدأ صوتُ الصفارةِ في التصاعدِ والتكرارِ المتسارعِ. توجهت
أنظارُ الجميعِ للسيدِ الواقفِ في المنتصفِ لأعْبًا بأصابعِهِ ببراعةٍ
في أعماقِ هذا التمثالِ القابعِ أمامهم! كلُّ مَنْ في الغرفةِ شعروا
بالقلق... حيثُ بدأ العَرَقُ يأخذُ مجراهُ على منحنياتِ وجهِهِ
هذا القائدِ ذو الوجهِ الصامتِ، والذي بدأتْ ضرباتُ قلبِهِ تسابقُ
بعضُها البعضَ كخيولٍ جامحةٍ في وادٍ برِّيٍّ..

المساعدُ في صوتٍ خافتٍ:

دكتور: ضغطُ الدَّمِ ينخفضُ..

لم يرد عليه هذا الشخصُ واكتفى بنظرةٍ ثاقبةٍ له ولسانِ
حالِهِ "ممكِن تَسْكُتٌ"!

طنينُ الجهازِ يزدادُ، والتَّوتُّرُ يسودُ الموقفَ، ولكنَّ سيدَ

الغرفة تمالك أعصابه ، واستطاع أخيراً أن يهدئ من صُراخ هذا الجهاز بعد أن استطاع أخيراً ربط الشريان القلبي المتسبب في هذا القصور الدّمويّ الحادّ. هنا تنفّس كلُّ القابعين في الغرفة الصّعداء ، وعلى رأسهم رئيس الفريق الجراحيّ الدكتور (عصام).

خلع (عصام) بذتّه الجراحية الملتخّة بالدماء في حركة استعراضية مُلفتة مُلقياً بغطاء الرأس بعيداً ، وخرج من جناح العمليّات ، وهو أشبه بالفاتحين الذين خرجوا منتصرين لتوّهم من معركة حربيّة ملحمة بعد أن انطلق جميع مَنْ في الغرفة في حفلة ثناء عليه أمام نجاحه المبهر في إنقاذ حياة المريض!

— تسلم إيدك دكتور عصام.... تسلم الأيادي...

هكذا خاطب الطبيب المساعد د/ عصام كنوع من الاعتذار له عن اهتزاز ثقّبه به أثناء العمليّة والذي لم يكتث برأيه. ! عمله كجراح مُرهق وشاقّ للغاية.

يومه الطويل يبدأ من الساعة الثامنة صباحاً وينتهي مع غروب الشّمس التي لا يراها هذا الطبيب البارِع إلا في اليوم التّالي حتّى كاد ينسى مشهد الغروب تقريباً. انتهى عمله اليوم مبكراً على غير عادة. فَباقِي الأَيّام تَتَسَمُّ بالنهاية الدّرامية التقليديّة بخوار كافة أجزاء جسده من

الإرهاق، وانتهائه بالقفز في سيارته والتي يقودها بنفسه، وهو لا يشعر تقريبًا بأطرافه.

اليوم هو الخميس والذي لا توجد به أيّة عمليات جراحية معلقة في رقبته فهذا الجراح الذي عادَ من بلادِ العمِّ "سام" بعد بعثةٍ دامتَ عامين هو الوحيدُ تقريبًا في القاهرة الذي يتخصَّصُ في هذا النوعِ الدقيق من عمليات القلب المفتوح.

الجميعُ في هذا المشفى الخاصَّ الشهيرِ ينتظرونه لعرض الكثير من الحالاتِ عليه طلبًا للمشورة يقفُ (عصام) وسطَ حجرة الكشفِ بقامته الطويلة ونظارته المربّعة التي تغطّي وجهه المربّع الطفولي، والذي يكسوهُ زَقَنٌ يختلطُ فيه الشعرُ الأسودُ بالأبيض فهو في عَقْدِهِ الخامس؛ الذي يَعْبُرُ خلاله الإنسانُ من مرحلةٍ إلى مرحلةٍ مختلفةٍ تمامًا.

كان الشبابُ الأطباءُ ينظرونَ إليه في انبهارٍ تمامًا ككهنةٍ معبدٍ يتجمّعونَ حولَ كاهنٍ مُلهم!

كلُّهم حَلُمُوا بأن يكونوا مثله في يوم من الأيام. طبيبٌ في منتصفِ العمر أصبحَ بمهارته حديثَ المَجتمعِ الطَّبِبي حتّى إنّه قد أضحى ضيفًا للفضائيات التي لم تتركْ تلكَ الفرصةَ للحديثِ مع هذا الطبيبِ النَجْمِ السَّاطِعِ في مجالِ عملياتِ القلبِ المفتوح.

في أحد اللقاءات مع مذيعة شهيرة في برنامج "حديث الساعة" أخذت المذيعة قَبِيلَ التسجيلِ تذكُّره؛ كيف أَنَّهُ هو مَنْ أَنْقَذَ والدَهَا السبعينيَّ العمرَ بعدَ أَنْ أُجْرِيَ لَهُ جراحةٌ ناجحةٌ، وَلِلْعَجَبِ لم يتعرَّفَ عَلَيْهَا (عصام) فهي أثناء التسجيل قد صارتِ امرأةً مختلفةً تمامًا عن الواقعِ ففي الأستديو يخفي شكلُها الحقيقيُّ تحتَ مساحيقِ التجميلِ الكثيفةِ التي جعلتها أقربَ إلى (العروسةِ الحلاوة) منها إلى المرأةِ العاديةِ!

أثناء التسجيل في البرنامج باغْتَتِ المذيعةُ المتطفلةُ ضيفَهَا بسؤالٍ لَمْ يَكُنْ متَّفَقًا عَلَيْهِ أشبهَ بالطلقةِ المقدوفةِ من سلاحِ ناريٍّ..

– د. عصام... ممكنْ أسألك سؤالَ شخصي.؟!

ردَّ عليها بالإيجابِ في هُدوءٍ وثباتٍ جَرَّاحٍ متمرِّسٍ فتقريبًا توقَّعَ السؤالَ الذي تكررَ على مسامِعِهِ كثيرًا.

– حضرتك صحيح أعزب حتى الآن.؟!

ردَّ عليها في رويةٍ بعدَ أَنْ أخفى حَنَقَهُ من هذا السؤالِ المتكررِ بشكلٍ أشبهَ بصداقِ نصفِيٍّ مُزْعَجٍ...

– صحيح أنا حتى الآن لم أتزوج!

في سرعةِ البرقِ عاجلتَهُ المذيعةُ بتابعِ سؤالِها، والذي كانَ بمثابةَ لُكْمَةٍ خُطَافِيَّةٍ مزدوجةٍ لخصمِ شرِّسٍ...

سألتهُ في إلحاح ما السبب الذي يجعل رجلاً من نجوم
المجتمع يعيش وحيداً حتى الآن؟!
كالعادة وبشكل روتيني تقليدي معتاد في مثل تلك المواقف
ردّ عليها عصام:

- لأنني لم ألتق ببنت الحلال.... دعواتك.....
أخيراً انتهى من مناظرة الحالات. قفز من مقعده مسرعاً
إلى خارج المشفى بعد أن علّق البالطو الأبيض على الشّاعة
المعدنيّة داخل غرفته في المشفى الاستثماري.
في طريقه إلى الخارج كان يسير مسرعاً؛ بينما العديد من
شباب الأطباء والتمريض يلاحقونه لاستشارته في أمر بعض
الحالات. نجح بعضهم في إيقافه، وهو ينظر في ساعته كمن
يحاول اللحاق بموعد ما...

تمكّن في النهاية من مغادرة المشفى إلى سيارته "الفولفو"
في فناء المشفى أغلق هاتفه الجوّال.

هنا تنفّس الصّعداء فقد تمكّن أخيراً من قطع صلتبه بهذا
العالم الصاخب المملوء بالعمل الطبي الذي يجعله مضطراً
لرؤية البشر في أضعف حالاتهم ممّا يضع أحجاراً على قلبه
الذي يظنّه الكثيرون أنّه صلباً. بينما في الحقيقة هو غير
ذلك على الإطلاق؛ فكل حالة حرجة تأخذ منه قطعة من نفسه
الرقيقة، وتترك داخله فراغاً أسود قاتماً أشبه بالندبة التي

أَلْتَبِهَ مِنْ جَرَاءِ هَذَا الضَّغْطِ النَّفْسِيِّ الْقَاسِيِ !
بعد أن تحرَّكتِ السيارة... أدارَ "راديو" السيارة ليستمعَ إلى
إحدى القنواتِ على موجةِ الـ " FM " الواضحةِ فهو يعيشُ
"الراديو" منذُ أن كان طالباً في كليةِ طبِّ (القصرِ العيني)، والتي
التحقَ بها بعدَ نجاحِهِ المُبهرِ في الثانويةِ العامَّةِ في بلدتهِ
الساحليَّةِ الهادئةِ..
للصُّدْقَةِ تردَّدَ صوتُ المذيعةِ الشهيرةِ مرَّةً أُخرى عبْرَ سمَّعاتِ
السيارةِ الفارحةِ...

بمجرد أن سمعَ صوتها تذكَّرَ سؤالها المُحرَجَ !
لم يستطعَ وقتها أن يجيبها عن سببِ وحدتهِ. كان يعلمُ
أنَّ صورتَهُ كأحدِ نجومِ المُجتمعِ ستتهتَزُّ لو علِمَ الجمهورُ
السببَ..

كطبيبٍ ناجحٍ كلُّ خطواتِهِ محسوبةٌ ، وتقريباً أنفاسُهُ نفسُها
يعدُّها النَّاسُ عليَّهِ !

الجميعُ يريدونهُ بنفسِ الشكلِ ، وبنفسِ الهيئَةِ النمطيَّةِ
المُقَوَّلَةِ. طبيبٌ ناجحٌ مهنتُهُ أكسبتهُ شهرةً واسعةً وجعلتهُ
بمثابةِ النجومِ التي يعيشُ الجميعُ رؤيتها تتلألُ في السماءِ
متناسينَ أن تلكَ الأجرامِ اللامعةِ هي مفاعلاتُ نوويةٌ هائلةٌ
تحترقُ عبْرَ ملايينِ السنينِ.

في الطريقِ قامَ بتشغيلِ هاتفِهِ الجَوَّالِ الخاصِّ ذي الرقمِ

المختلف. قرّر الاتصال بصديق عمره وابن الدفعة نفسها في الكلية (كمال) هذا الطبيب الذي لم يتخصّص وبقِيَ على حاله طبيباً ممارساً عامّاً في إحدى الوحدات الصحية في قرية نائية على أطراف محافظة (الشرقية) حيث تزوّج هناك فتاة ريفية وأنجب ستة أطفال.

الهاتف يرنّ، وصوت الجرس يملأ السيارة؛ ف "الموبايل" متصل بالمذياع بتقنية "البلوتوث". لم يرد (كمال) في البداية على الهاتف كعادته ف (عصام) اعتاد على الاتصال به بشكل متكرّر، ومتلاحق حتى يستجيب لنداء الهاتف فهو دائماً لا يكثرث لوسائل الاتصال الحديثة، ويعتقد أنها تثقل أعصابه، وترهقه لذا فهو يترك هاتفه الجوّال في أيّ مكان في العمل أو المنزل...

بعد اتصالات متكرّرة أجاب (كمال) على صديقه بقهقهته الافتتاحية المميّزة.

– إيه يا (عصام) هو انت كده دايمًا قلقان حتى في الموبايل؟
رد عليه (عصام) في سخرية: و(انت زي ما انت يا كمال رايق على طول يا عم شيل المراوح اللي انت مركبها على صدرك) ضحك كمال بصوت عالٍ قائلاً: (لازم ابقى رايق... طبيب يعيش في الريف وسط الزرع والخضرة وبيكشف على مرضى غلابه بملايم مش زيك دكتور كبير حياتك مكهربة

ومرضاك من عليّة القوم)...

شعر (كمال) بثقل كلماته على صديقه فباغته مداعباً...
(انت بتكلمني من العربية يا عصام... طبعاً يا عم مش فاضي
لكن انهاردّه انت بتكلمني بدري شوية)....

ردّ (عصام) عليه بشكل تلقائيّ: (ما انت عارف يا كمال إن
انهارده الخميس وبأخلص شغل بدري ،وزي ما انت عارف
برضه ولا أحد يعلم غيرك اليوم هو اليوم المفتوح بتاعي) رد
كمال في اندهاش...

(آه للدرجة أنا مفصول عن الدنيا؟ أنا آسف يا صديقي لم أعد
أشعرُ بالأيام؛ فالحياة هنا هادية زيادة عن اللازم...عموماً يا
باشا يوم مفتوح سعيد مقدماً وسلملي على اللي باللي بالك)....
أنهى (عصام) المكالمة وقد شعرَ بالارتياح والارتخاء بعد
مكالمته لصديق عمره (كمال) الذي اختارَ العزلة والهدوء في
الريف عن الحياة الصاخبة في المدينة. وصلتِ السيارةُ إلى هذا الـ
"كومبوند" الهادئ حيثُ "فيلا د. عصام" فتحتُ بوابةَ "الجراج"
بالريموت؛ لتدلفَ السيارةُ إلى الداخل، وتبتلعها "الفيلا"،
ويدخل معها إلى داخلِ منزله من خلالِ بابٍ خلفيٍّ.

صعدَ مسرعاً إلى الطابق العلويّ حيثُ غرفةُ النوم الخاصةِ
به وفي لحظاتٍ خلعَ بذّته، ورابطةَ عنقه ليَقذفَ بهما على
السُريرِ داخلَ الغرفةِ دونَ اكتراثٍ ليتحرّكَ مسرعاً إلى داخلِ

الحمّام حيث ماء الدش الدافئ يستطيع أن ينسيه هذا الأسبوع الشاق من العمل الصّعب... سريعاً خرج من الحمّام ليفتح دولاّب ملابسه ليختار منه "تيشرت" أبيض ، وبنطال "جينز" ارتداهما على عجل ، ونزل إلى الطابق السفليّ ليأخذ صندوقاً أسود بمقبض جلد كان موضوعاً على المكتب.

جلس بجوار الصندوق بعد أن طلب سيارة "أوبر" من هاتفه "الأيفون" الخاص المختلّف عن هاتف العمل. أثناء انتظاره جلس أمام المرآة في الصالة حيث ارتدى نظارة شمسية سوداء غطاها بباروكة سوداء بشعر أسود مُستعار طويل يُخفي به شعرة القليل المنسحب مع الزمن... رن هاتفه معلناً وصول السيارة. قبض بيده على الصندوق الخشبيّ الأسود، وخرج مسرعاً من الباب الخلفي لـ "الفيللا" المحاطة بحديقة واسعة. تحركت السيارة الهاتف يضجّ بالطنين بينما هو قد أغمض عينيه ليريهما قليلاً قبل تلك الليلة الصاخبة.

اخترقت السيارة القاهرة لتمرّ في أحيائها القديمة كالماء المنساب عبر قنوات ضيّقة. الزحام سيّد الموقف، ولكنّ اشتباك الأجساد السائرة للبشر مع الشوارع ذو وقع خاصّ على (عصام) الذي أخذ

يتذكّر شقة الطلبة القديمة في حيّ (فمّ الخليج) الشعبيّ
كم كانت الحياة بسيطة. كم كان حُرّاً كالعصفور يأكل
كيفما شاء و يلهو كيفما شاء!

لا يعرفه أحدٌ غيرُ أصدقائه من الكلية من أبناء الأقاليم
الذين يسكنون بجواره في الأحياء المجاورة. وصلت السيارة
إلى الموقع المنشود بعد أقل من ساعة اختراقاً لجسد العاصمة
المنتفخ بالضجيج.

ترك السيارة ليجد تلك الفتاة الشقراء تنتظره بالقرب
من الباب الخلفيّ للمسرح. بمجرد رؤيتها له اندفعت تلك
المرأة ذات الجسد الرفيع الملفوف نحوه وهي ترتدي زياً
يشبه تماماً ما يرتديه هو من "جينز، و تيشرت".
ارتسمت على وجهه ابتسامة تعكس سعادة غامرة برؤية
تلك المرأة الشقراء، والتي تقاربه في العمر تقريباً خاطبته
بلكنتها الغربية المزوجة بالعربية الشاميّة الركيكة:
- "هاي" عصام حبيبي كيفك...

رد عصام في لهفة... (كويس يا "كلوديا" على فكرة
وحشتيني أوي أوي، ولذلك أنا حجزت لنا غرفتين في فندق
خمس نجوم في القاهرة غرفة لنا وغرفة للأولاد... هما فين
دلوقت..؟

- لا تقلق (هما في المسرح مع الجمهور إحنا وصلنا من المطار

على هنا) في أثناء هذا اللقاء الحار اقترب مجموعة من الشباب منه، و"كلوديا" وكانوا يرتدون نفس الملابس من "تيشرت" أبيض، وبنطال "جينز" أزرق.

تقدم أحدهم منهم طالباً الدخول إلى داخل المسرح استعداداً للحفل الموسيقي، والذي ستقدمه فرقتهم الموسيقية الشبابية التي كان (عصام، وكلوديا) أكبر أفرادها تقريباً كعازفين لألة "الجيتار" الغربية التي تعلم (عصام) العزف عليها أثناء بعثته إلى أوروبا. في حركة تلقائية فتح الصندوق الأسود ليخرج منه "الجيتار" ذا اللون الأحمر بعد أن تأكد تماماً من ارتدائه لنظاراته السوداء، وباروكة الشعر المستعار ليتحول الجراح الشهير إلى شخص آخر تماماً مجهول حتى لأفراد فرقة يعزف بأصابعه الماهرة على "جيتاره" في تناغم وحماس ليملاً فراغات نفسه السوداء التي فقدتها في عمله ليعود مرة أخرى كما كان عصفوراً طليقاً!

تمت

(فُرْصَة)

وَالْحَرْبُ مِنْ شَرَفِ الشُّعُوبِ فَإِنْ بَغَوْا
فَالْمَجْدُ مِمَّا يَدَّعُونَ بَرَاءً
وَالْحَرْبُ يِبْعَثُهَا الْقَوِيُّ تَجْبُرًا
وَيَنْوُوهُ تَحْتَ بِلَائِهَا الضُّعْفَاءُ

أحمد شوقي

(٦) (فُرْصَة)

(١)

من المؤكّد أنّ لهذا اليوم الحافل وقّعاً هامّاً على هذا
الرجل المُسنّ الذي لا يغادر منزله لأسابيع.
انحسرت الأضواء من حوله، فأصبح هذا المفكر الكبير
في طيّ النسيان كشمس ساطعة غطّاها قمر الخسوف
الطاغي!

كان يُعزّي نفسه دائماً أنّه يكفيه ما قدّمه من
نتاج فكريّ ضخم لتلك الإنسانية الناسية له، والجاحدة
لحقّه في التواجد والظهور.

أخذ يقلّب القنوات الفضائية في شغفٍ مُدرّكاً أنّ هذه
هي فرصته التي ستعيده سيرته الأولى. أعدّ لنفسه كوباً من
"النسكافيه" الساخن بواسطة ماكينة القهوة التي اشتراها من
الخارج في إحدى سفرّياته لحضور أحد المؤتمرات عندما كان
نجماً من نجوم الفكر والتحليل السياسيّ.

جلسَ على أريكتِهِ الوثيرة، أمسَكَ قَلَمَهُ بقوةٍ كمن يقبضُ
على مقبضِ سيفٍ حَرْبِيٍّ.
أخذَ يتابعُ الحَدَثَ الجاري، والذي يكادُ أنْ يَقْلِبَ
العالمَ رأسًا على عقبٍ!
أخذَ يفرغُ عُصَاةَ ملاحظَاتِهِ في نوتَةٍ ورقيةٍ قديمةٍ كان
قد هَجَرَهَا منذَ فترةٍ طويلةٍ.

(٢)

كان هذا الأبُ المنهكُ يجري بكلِّ ما أُوتِيَ من قوَّةٍ بسيارتهِ
"الفان" العائلية. توقَّعَ مثلَ غيره من أهلِ البلادِ اندلاعَ القتالِ.
وقعتِ الواقعةُ، وبدأ القصفُ العسكريُّ الغاشمُ لمدينتِهِ،
وهنا قَرَّرَ أنْ يهربَ، هو وعائلتهُ إلى الحدودِ!
دلفَ الجميعُ إلى داخلِ السيَّارةِ الأمِّ جمعتِ القليلَ من الموادِّ
الغذائيةِ، والأطفالُ كانوا في حالةٍ من الذهولِ لعدمِ إدراكِهِم ما
الَّذي يحدثُ، ولماذا يتركونَ منزلَهُم بهذهِ الصورةِ المُفزعةِ!
بالرغمِ من سرعةِ السيَّارةِ التي تقلُّ هؤلاءِ المذعورينَ إلا إنَّ
الأبَ قد فوجئَ بقوافلِ اللاجئينَ مثلَهُم من العائلاتِ الهاربةِ
من جحيمِ الحربِ المُستعرةِ لتتحوَّلَ السياراتُ إلى ما يشبُّهُ
القطاراتِ المتراصَّةِ التي تسيرُ بشكلٍ أشبه بالسلاحفِ، بينما
تتعالى أصواتُ "الكلاكسات" لتختلطَ بأصواتِ الطائراتِ الحربيَّةِ
الناعقةِ في أرجاءِ السماءِ معلنةً قصفَ البلادِ بالمتفجراتِ كعقابٍ

جماعي لتلك الدولة المارقة.

ارتضى الأطفال في حِضْن الأمّ المذعورة بينما يجاهد الأب
للعبور بين السيارات بأيّ ثمن وُصولاً إلى خط النهاية في هذا
السِّباقِ البشريّ من أجل النِّجاة.

(٣)

لم يعلم ماذا يفعل هذا المفكّر السَّابِق. كان حدسه يؤكّد
له أنّه سيعود مرةً أخرى إلى الأضواء، وكيف لا يثق في تنبؤاته؟
وهو الذي طالما ملأت تكهناته السياسية كتباً ومقالات قبل أن
يخفّت نجمه مع انهيار تلك الدولة العظمى، والذي كان خبيراً
في شؤونها حيث عاش فيها لعقودٍ ودرّس في أكبر جامعاتها.
دخل الرجل إلى غرفة نومه... فتَح دولاّب ملابسه ليختار لنفسه
بذّة يرتديها. بدأ في الاختيار بين رابطات العُنق المتنوعة التي
يملكها فاختار الحمراء المخططة، والتي كان يتفائل بها.
وقف أمام المرأة ليُمَشِّط شعر رأسه الذي كان قد نسيه
المُشط منذ سنين.

بينما كان يتأَنَّق إذ بجرس هاتفه النِّقال يصدح بالرنين
بهذه النغمة "الأوركستراالية" التي اختارها لهاتفه النِّقال
حُبّاً في الموسيقى "الكلاسيكية" التي أدمن سماعها منذ أن
عاش في هذا البلد الشرقيّ العريق لتبدأ مع هذه الرنات
ضربات قلبه في التسارع!

(٤)

وصلت العائلة الهاربة إلى المَعْبَرِ الحُدُودِيِّ. كانت الصدمة كبيرةً عندما علِمَ الأبُّ أنَّ التعليماتِ على الحدودِ تمنعُ عبورَهُم إلى الدولة المجاورة.!

بدأت أصوات الرجال في الارتفاع ، اشتبك بعضهم مع حرسِ حدودِ الدولة المجاورة ليسحب أحد الحُرَّاسِ سلاحه من فوق كتفه ، ويبدأ في إطلاق الأعيرة النارية في الهواء لوقف هذا التجمُّه ليرتعد الجميع وتفزَع الأم التي أخذت تضمُّ أولادها بين ذراعيها بقوة ، بينما الأب يحاول تهدئة مَنْ حوله من الرجال الذين أخذوا يَكِيلُون الشتائم لهؤلاء الحراس الذين منعوهم من العبور إلى الدولة المجاورة.

(٥)

حدث ما توقَّعه بدقة؛ بدأت الحياة تضحكُ له مرةً أخرى، كان العَرَضُ سخياً حيثُ جاءته عُرُوضٌ من جهاتٍ عدَّةٍ مقابل مبالغ سخية بالعملة الصَّعبة. كان يُدرِكُ أنَّ تلك الأزيمة ستتمتدُّ، وأنَّ رأيه مطلوبٌ في التوقيتِ المحددِ له. جلسَ على أريكته ، فتح جهازَ "اللاب توب" ، تأكَّد من توصيل السَّماعاتِ إلى أذنيه وقَرَّبَ الـ "مايك" من فيه ، فتح تطبيقَ الـ "زووم" ليبدأ في الاتِّصالِ بالقناةِ الفضائيةِ ،

لتنسارع دقات قلبه كممثل عاد مرة أخرى إلى خشبة المسرح بعد غياب. بدأ البث الحي، أعلمه الإعداد أنه الآن على الهواء مباشرة.

كان سؤال المذيعة متوقعاً لهذا المفكر العتيد حيث تناول الأسباب الحقيقية لاندلاع الحرب في تلك الجمهورية السوفيتية السابقة!

هنا كانت اللحظة التي عاد فيها هذا الجراح السابق إلى غرفة عملياته ليبدأ هذا المحلل الاستراتيجي في طرح رؤيته للحرب الدائرة بكل ثقة وثبات راجياً من الله أن تمتد الحرب لأطول وقت ممكن.

(٦)

في النهاية جاء القرار الصاعق للجميع: كل اللاجئين سيبقون على الحدود في معسكرات مخصصة لهم على الحدود حتى انتهاء الحرب مع وعدهم بوصول مساعدات إنسانية من الدول المجاورة في أقرب وقت ممكن. كان الخبر صادمًا للهاربين من جحيم القصف. عاد الأب إلى سيارته الـ"فان" العائلية ليطمئن أطفاله المذعورين، ويخبرهم بقرب عودتهم إلى منزلهم في أقرب وقت على عكس الحقيقة تمامًا.

تمت

(سُوقُ)

دُنْيَايَ سُوقُ لِلوَرَى
كُلُّ يُبَاعُ وَيُشْتَرَى
مَا بَيْنَ غَالٍ أَوْ بَخِيسٍ
مَنْ مِنْ نَصِيبِهِ جَرَى؟!

أحمد السيد



(٧) (سُوق)

بدأ العرقُ يُغَطِّي وجهي وأنا أسيرُ مسرعاً في هذا الشارع الشعبي الضيق والذي يُعرَف في بلدي باسم (شارع السُّوق). مزدحمٌ كعادته بالناس الذين جاءوا من القرى المحيطة بالمدينة لشراء لوازمهم الحياتية سواء من الباعة المفترشين للأرض على جانبي الطريق المختنق أو من المحلات التي تكاد تختفي كظل باهت خلف هؤلاء الباعة المستقرين عنوة أمام محلاتهم، وساعد أيضاً على هذا الاختفاء عرض أجزاء من البضائع التي تنتفع بها تلك المتاجر التي لا تجد مكاناً لها داخلها، وترشد المشترين عن المحل الغارق في زحام الأجساد. حاولت أن أكون رشيقاً في مشيتي تجنباً للاصطدام بأي رجل أو امرأة أو حتى طفل قد يدخلني في مشاجرة لا تحمد عقباه؛ فأنا قليلاً ما أسير على قدمي في أماكن مزدحمة مثل تلك. والسيارة لا يمكن لها المرور هنا. لكنني اضطررت أن أدلف إلى داخل السوق لأزور أحد التجار من أصدقاء الطفولة، والذي لم أره منذ أن سافرت إلى الخارج في إحدى دول الخليج للعمل.

ما زال هو نفس الشارع الضيّق. طينني الأرض ، ونفسي الباعة المتراصين على جانبيه من رجالٍ جلاليب يملأها العرق والملح المترسب. يجلسون القرفصاء بجانب النساء القرويات المتشحات بالسواد من رأسهم إلى أخمص أقدامهن.

بعض الرجال يبيعون غالباً السمك الذي تم صيده فجراً من النيل الذي يخترق المدينة ، بينما البعض الآخر يبيعون الملابس من جلاليب ، و ملابس داخلية. أما النساء فيبيعون (المسلي ، والجنب القريش ، و المش ، والطيور) وغيرها من منتجات منازلهم القروية.

هذا ما كان في الماضي عندما كنت طفلاً وشاباً. أراه دائماً في هذا المكان عندما أزور محل والد صديقي ؛ والذي كنت أجلس مع ابنه في محله الضيق لبيع الأقمشة.

لظالما كان يُبهرني بطريقة قياسه لـ (أتواب) القماش بالمسطرة الخشبية ، وقطعه لها بالمقص الحديدي في خط مستقيم بسرعة تجعل حافة القطعة المقصوفة كأنها قطعت بآلة في مصنع ، وليس بمقص أسود اليدين امتلأت حوافه بالصدأ من كثرة الاستخدام.

كان هذا في الماضي أما اليوم فإنني أرى الكثير من محلات الأجهزة الكهربائية ، والهواتف النقالة تملأ السوق بشكل

كَادَ يَغْلِبُ عَلَى طَبِيعَةِ الْمَكَانِ الْمُعْتَادَةِ لَوْلَا وَجُودُ أَهْلِ الرَّيْفِ
مِنَ الْبَاعَةِ الْقُرُوبِيِّينَ. بَيْنَمَا أُخْتَرِقُ هَذَا الْمَوْجَ الْبَشَرِيَّ وَسَطَ
الزَّحَامِ بَدَأْتُ أَرَى الْكَثِيرِينَ مِنَ الْجِيرَانِ وَأَصْدِقَاءِ الدِّرَاسَةِ
وَقَدْ غَيَّرَهُمُ الزَّمَنُ كَمَا غَيَّرَنِي، فَوَجَدْتُ مَلَامَحَهُمْ قَدْ
تَبَدَّلَتْ مَعَ مَرُورِ السَّنِينَ حَتَّى بِالكَادِ أُتَعَرَفُ عَلَيْهِمْ وَسَطَ
الزَّحَامِ. وَ الْكَثِيرُونَ مِنْهُمْ يَتَجَنَّبُونَ التَّعَرُّفَ عَلَيَّ حَتَّى
لَا يَضْطَرُّونَ إِلَى مَصَافَحَتِي وَهُمْ فِي حَالٍ لَا يَسُورُ. يَخْتَلِفُ
عَنْ حَالِهِمْ فِي سَنَوَاتِ الطُّفُولَةِ الَّتِي كُنَّا فِيهَا فِي عَالَمٍ مَلَانِكِيٍّ
بَعِيدٍ تَمَامًا عَنِ التَّعْقِيدَاتِ وَالْحِسَابَاتِ!

أثناءَ ذَلِكَ مَرَّ فَجْأَةً بِجَانِبِي رَجُلٌ بِجَسَدٍ هَزِيلٍ مُتَقَدِّمٍ
فِي السَّنِّ كَطِيفٍ عَابِرٍ. عِنْدَمَا التَقْتُ عَيْنَايَ بِهِ رَمَقَنِي بِنَظَرَةٍ
ثَاقِبَةٍ مِنْ عَيْنَيْنِ حَادَّتِي النَّظَرِ.

تَوَقَّفْتُ لِأَنْظُرَ خَلْفِي لِأَرْقُبَ هَذَا الرَّجُلَ ذَا الْوَجْهِ الْمَأْلُوفِ
وَالَّذِي كَانَتْ عَيْنَاهُ أَشْبَهَ بِالْجَرَسِ فِي عَقْلِي!

عَلَى الْفُورِ بَدَأْتُ تَنْشِطُ ذَاكِرَتِي الْبَعِيدَةَ لِتُبْحَثَ عَنْ هَذَا
الْوَجْهِ الْمُعْتَادِ الَّذِي غَالِبًا أَعْرِفُهُ جَيِّدًا. كَانَ الرَّجُلُ يَسِيرُ
بِصُعُوبَةٍ وَسَطَ الزَّحَامِ، وَهُوَ يَسْتَنْدُ عَلَى عَصَا خَشَبِيَّةٍ تَغْطِي
مَقْبِضَهَا لِفَائِفُ الشَّاشِ الطَّبِيِّ رُبَّمَا لِتَحْمِي يَدَيْهِ مِنْ أَثَرِ
اِحْتِكَائِ يَدَيْهِ بِهَا مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَسْتَخْدِمُهَا بِاسْتِمْرَارٍ فِي
حَيَاتِهِ وَسَيْرِهِ حَتَّى أَصْبَحَتْ جِزْءًا لَا يَتَجَزَأُ مِنْهُ.

كان يرتدي "بلوفر" صوف قديم الطراز يُغَطِّي "بيجاما كستور" من منتجات مصانع المحلّة الكبرى التي اعتاد والدي أن يرتديها بفخر طوال الشتاء؛ فتلك "البيجاما" كانت ماركّة مسجلة لكل المصريين أثناء العهد الناصريّ الذين توحّدوا فيه تحت راية الزعيم في اللبس وأسلوب الحياة المتقشّف؛ تماشيًا مع النهج الاشتراكي وقتها.

نظرًا لبُطء حركته استطعت اللّحاق به وسط الجموع الغفيرة حيث كان قد وصل لأحد مخابز الخبز المدعوم من الدولة واقفاً منتظرًا دوره في الحصول على حصته التموينيّة من الأُرغفة المتقدّة الحرارة في هذا الشتاء المشمس..

طالعتُه عن بُعد وأخذتُ أنفحصُه جيّدًا لأتعرّف عليه فملاّمه أعرفها جيّدًا: العينان الواسعتان، والأنف الصغير، والوجه القمحيّ اللامع الذي يغطّيه الآن الذقن الأبيض الذي اشتعل شيبًا، ويبدو أنه لم يَهْدُبْهُ منذ وقتٍ طويلٍ. اقتربتُ منه محاولًا تذكّره.

وقفتُ في الطابور مع أهل (شارع السُّوق) الذين يعيشون في الشوارع المتفرعة منه. فهم أصحاب مكان غير الباعة الجائلين. اقترب صاحب الوجه المألوف من صاحب المخبز، والذي فور رؤيته صافحه بحرارة، وعرض عليه الجلوس احترامًا لقدر الرجل وسنّه، وأخذ يحدثه.. "إزيك يا أستاذ حسّاني؟ إن

شاء الله تكون الصحة تمام. "...؟"

أستاذ حساني! يا لله إنه هو. أستاذ (حساني) معلّمي في المدرسة الإعدادية. كم غيّر الزّمن، وترك بصمته الثقيلة عليه!

أتذكّره جيّدًا عندما كان المدرّس المثاليّ في مدرّستنا الحكومية فقيرة الإمكانيات؛ كيف كان له صوتٌ يملأ أرجاء فناء المدرسة.

"تحيا جمهورية مصر العربية"

كان يرُدّها بقوةً بكلماتٍ تخرجُ من صدره كالطلقات حتى خيّل لنا نحنُ الأطفالُ أنه ضابطٌ جيشٍ مستدعى إلى المدرسة. كان يصولُ ويجولُ في مدرّستنا الفقيرة، وكان يدرّسُ كافةَ الموادّ تقريبًا سادًّا للعجز في المدرّسين. لم يكن يهتمُّ بالدروس الخصوصية كغيره من المدرّسين بل على العكس كان يتعمّد إعطاءَ ساعاتٍ كثيرةٍ إضافيّةٍ من وقته لتدريس الطلبة الذين علِمَ بتقصّيه لأحوالهم أنّهم لا يتعاطون مثلنا هذا المخدّر التعليمي السائد. كان يومًا مريّرًا عندما جاء إليّ في الفصل، وقد تحوّلت ملامحه الجادّة إلى صورة الأب الحاني!

"يا يحيى: عايزك يا ولدي في كلمتين"

أخذني من الفصل، وهو يضعُ كفّه على كتفي الأيمن، ويدكّرني طول الطريق إلى مكتب المدير أني صرتُ رجلًا

الآن، و "الرجل لازم يثبت في الشدائد" على حدّ قوله لأجد عمي (ياسين) ينتظرني في مكتب المدير ليُبلّغني بخبر وفاة أبي في حادث سير أثناء زهابه إلى عمله في أحد فنادق المدينة الشهيرة!

منذ هذه اللحظة صار لي والدان؛ عمي (ياسين) في المنزل، والذي وقف بجانبنا (أنا، وأمي، وإخوتي) حتى أوصلنا إلى برّ السلامة، وأستاذ (حسناني) في المدرسة، والذي منذ وفاة الوالد أضحى متابعاً عن كثب لي في المدرسة حتى تركت المدرسة الإعدادية، وانتقلت إلى المرحلة الثانوية، وحتى بعد أن التحقت بكلية الهندسة كنت مواظباً على الذهاب إلى المدرسة الإعدادية لألقي عليه التحية حتى لم أجده في إحدى زياراتي للمدرسة لأعلم أنه تم نقله إلى مدرسة أخرى، وهنا انقطعت أخباره، ودارت عجلة الزمن، و تركت مدينتي إلى بلاد النفط البعيدة. أخذ أستاذ (حسناني) حصته من الخبز، ووضعه في كيس شبكي، وسار به تاركاً المخبز. تركت الطابور لأتوجه نحوه فكم سيكون سعيداً برؤية أحد طلابه، وقد صار رجلاً متعلماً خصوصاً وهو يعلم ما ألم بي من ظروف. باغته وهو يسير: أستاذ (حسناني) "إزيك انت مش فاكروني".؟

نظر إليّ الرجل في استغراب، وتعجب!

"خير يا بني في حاجة ؟ ""
 " أنا يحيى الطالبُ عندك في الإعدادية من ٣٠ سنة... ""
 فتح الرجل فمه في تعجب " من ٣٠ سنة " !
 هنا ابتسم الرجل في سخرية. " والله يا بني ما فكرتُ ابيه
 امبارح ""
 حاولتُ أن أنعش ذاكرتهُ ولكنه كان غيرَ راغبٍ حتى في
 التذكُّر ليردَّ عليَّ ببرودٍ..
 " يا بني أنا كبرتُ و بقيتُ زي ما انت شاييف.... عموما
 اهلا وسهلا شكلك ربنا فتح عليك وربنا يسهلك طريقك "
 حاولتُ أن أساعدهُ في الوصول إلى منزله وأن أحملَ الخبزَ
 عنه، ولكنه رفضَ بشدةٍ، وشعرتُ في عينيهِ خجلاً ممَّا وصلَ
 إليه حاله في كهولته وهو من كان في نظرنا نحن الطلبة أشبه
 بنجوم السينما من حيثُ الشهرة و الانبهار.
 تركتهُ لأعودَ إلى صاحبِ المخبزِ لأسأله عن الأستاذ (حساني)،
 وما الذي وصل به إلى ذلك الحال؟
 ذكر لي في اقتضاب أنه يعيشُ وحيداً بعد وفاة زوجته،
 وسفر أولاده إلى الخارج للهجرة فتركوه بمفرده في منزله،
 ونحن أبناء السُّوق دائمي السُّؤال عنه، ونحاول أن نساعده عن
 طريق قضاء حوائجه التي لا يستطيعُ قضاءها لكبر سنه!
 انتهى كلامُ صاحبِ المخبز، وعدتُ مرة أخرى لأسير في

طوفان البشر الغامر في هذا السُّوق حتى أصلَ لمحَلِّ صديقي ،
وأنا أفكِّرُ فيما آلَ إليه حالُ رجلٍ له كثيرٌ من الفضلِ على
العديدينَ مِنَّا ، ويعيشُ الآنَ وحيداً يَصارعُ الفقرَ ، والعزلةَ ،
والمرضَ !

تمت

(شبكة)

أرؤض نفسي على أن أكون أنا
وأرتب في مقلتي ملامح وجهي
الجديد إذا ما دنا
فإذا لاح مستقبلي
أتسلل وحدي إلى داخلي
وأعود وحيداً إلى أولي!

فرغلي الخيري



(٨) (شبكة)

كالعادة أخذَ يبحثُ في الظلام عن هاتفهِ الجَوَّالِ الذي يُطَنِّطُنْ بتلك النغمةِ الكثيبيَّةِ النَمَطِيَّةِ التي اعتادَ سماعَها عندَ انتهاءِ ساعاتِ نومِهِ القليلةِ معلنةً الفتكَ بأحلامِهِ القليلةِ الحظِّ والحيلةِ ؛ فهي لا تكادُ تتشكَّلُ في عقلِهِ الباطنِ حتَّى يأتي صوتُ الرنينِ العاليِ كملاكِ الموتِ الهابطِ مِنَ السمواتِ لقبضِ هذه الأجنةِ الحديثةِ التشكُّلِ.

استقيظَ من نومِهِ متوجِّهًا صوبَ حَمَّامِ الغرفةِ بعدَ أنْ أَجَلَ رنينِ الهاتفِ أكثرَ من مرَّةٍ، والذي أيقظَ زوجتهَ عنوةً ممَّا دفعَها أنْ تحملَ وسادَتَها، وتسيرَ من المهجعِ إلى بابِ الغرفةِ ببطءٍ في صعوبةٍ وترنُّحٍ !

أفاقَ من نومِهِ بعدَ أنْ تلقَّى ضربةً قويَّةً على وجهِهِ الدافئِ بفعلِ الماءِ الباردِ الصَّاعِقِ لخلايا جليدهِ. أدركَ أنَّه قد ابتعدَ كثيرًا عن هاتفِهِ النَّقَّالِ هُنا تحرَّكَ بسرعةٍ كادتْ أنْ تجعلَّهُ يتعثَّرُ في سجادةِ الغرفةِ ؛ كلُّ ذلكِ حتَّى يجعلَ الجَوَّالَ ملاصقًا لَهُ كعادتهِ ؛ فهو يعلمُ يقينًا أنَّ الهاتفَ لا يجعلُهُ يهنأُ بالراحةِ والسَّكينةِ حتَّى في دورةِ المياهِ.

حدث ما كان يتوقعه؛ رنَّ الهاتفُ مُصْدِرًا نغمةَ رنينه
الفيروزيَّة الطَّابَع بينهما هو يَحْلِقُ ذِقْنَهُ حديثَ المنبتِ
بالمكيَّة الكهربائية، والتي اشتراها في إحدى سفرياتِه إلى
(الولايات المتحدة الأمريكيَّة) فعملُه كمدير بإحدى الشركات
المتعددة الجنسيات جعله يُحَلِّقُ حَوْلَ العالمِ مستخدمًا
المأمورياتِ المتعددة لتلك الوظيفة الهامة. في لَمَحِ البصرِ وضعَ
سَمَّاعَةً "البلوتوث" في أذنه، وأكملَ الحلاقةَ أمامَ المراةَ بعدَ
أنْ ضغطَ على العلامةِ الخضراءِ على سطحِ هاتفِه "الأندرويد".
- ألو.

- صباح الخير مستر خالد

- صباح النور يا عصام..خير

-حييت أبلغَ حضرتك باجتماعِ مستر (شكري) لأنه أكَّدَ
عليَّ إنك لازم تكون حاضر...

- ماشي يا عصام تمام...فاكر...سلام دلوقتِ عشان أنا في
الحمام.

أغلقَ الخطَّ لينهيَ الحلاقةَ بشكلٍ متعجِّلٍ حتى يستطيعَ
اللِّحاقَ بالاجتماعِ. بدأ في ارتداءِ بزَّتِه بينما يتناولُ فطوره
المكوَّن من كوبٍ من النسكافيه، و "ساندوتش" جبن أبيض
سادة، أخذَ يحمِلُقُ في هاتفِه على مواقع الأخبارِ وصفحاتِ
التواصلِ الاجتماعي ليعرفَ آخرَ الأخبارِ.

رَنَّ هَاتِفُهُ مَرَّةً أُخْرَى بِنَعْمَةٍ مُخْتَلِفَةٍ لَيْسَتْ كَسَابِقَتِهَا
الْفِيرُوزِيَّةِ الْمُعْتَادَةِ فَتَلَكْ كَانَتْ رَسْمِيَّةً إِلَى حَدٍّ كَبِيرٍ.
ارْتَبَكَ (خَالِدٌ) فَوْرَ سَمَاعِهِ لِلنَّعْمَةِ؛ كَانَ يَعْرِفُ الْمُتَّصِلَ؛ إِنَّهُ
"مُسْتَرٍ شُكْرِي" مَدِيرُ الشَّرْكََةِ بِنَفْسِهِ.
انْتَفَضَ مِنْ جُلُوسَتِهِ، وَحَمَلَ حَقِيبَتَهُ، وَضَغَطَ عَلَى الزَّرِّ
الْأَخْضَرِ.

– صَبَاحُ الْخَيْرِ مُعَالِي الْبَاشَا
– صَبَاحُ النُّورِ يَا خَالِدٌ... فَيُنِصُّكَ... أَوْعِي تَنْسَى اجْتِمَاعَ
النَّهَارِ

– طَبْعَا مُعَالِي الْبَاشَا.. حُكُونٌ مُوجُودٌ أَوَّلُ وَاحِدٍ فِي
الْاجْتِمَاعِ....

– تَمَامٌ يَا خَالِدُ مَعَ السَّلَامَةِ. أَغْلَقَ (خَالِدٌ) الْخُطَّ، فَتَحَ بَابَ
الشُّقَّةِ بَعْدَ أَنْ ارْتَدَى حِذَاءُ الْجُلْدِيِّ الثَّمِينِ، وَسَاعَةً يَدِهِ
الذَّهَبِيَّةِ.

انْطَلَقَ إِلَى الشَّارِعِ الْكَائِنِ بِأَحَدِ "الْكُومْبُونَدَاتِ" الْوَاقِعَةِ عَلَى
أَطْرَافِ الْعَاصِمَةِ حَيْثُ أَخَذَ سَيَارَتَهُ الْفَارَهَةَ (الْأَمْرِيكِيَّةَ) الصَّنْعِ
لِيَتَحَرَّكَ بِهَا سَرِيعًا حَتَّى يَصِلَ إِلَى الشَّرْكََةِ قَبْلَ مُوَعِدِهِ الْمُعْتَادِ
حَتَّى يَسْتَعِدَّ لِهَذَا الْاجْتِمَاعِ الْهَامِّ....

حَاوَلَ أَنْ يَتِمَالَكَ أَعْصَابُهُ فَأَدَارَ مِفْتَاحَ تَشْغِيلِ "كَاسِيَتِ"
السَّيَّارَةِ عَلَى مَجْمُوعَةٍ مُخْتَارَةٍ مِنْ أَغَانِي (فِيرُوز). بَدَأَتْ

أعصابُهُ تتنازلُ تدريجيًّا عن ارتباكها السابق. ارتخى عقله وهو يسمع "فيروزيات" الصباح و السيارة مغلقة تمامًا بينما التكيف ينساب بهوائه البارد في عنقوان ربيعي وافر. أطلق (خالد) العنانَ لخياله... تذكر أيام شبابه في هذا الحي الشعبي الذي كان يقطن فيه مع والديه وإخوته. تذكر الصباح هناك حيث كان يختلف تمامًا عن حياته الآن!

كان يستيقظ في الفجر ليصلي الفرض في المسجد مع أبيه ليجد والدته قد أعدت لهما الفطور بعد أن يحضر لها الخبز البلدي الساخن من المخبز مع الطعمية الساخنة التي اعتاد على شرائها والدته من (عم عطية) الذي ينهي عمله التاسعة صباحًا الذي بدأه فجرًا بعد أن يكون قد باع كل ما صنعه في الليلة الماضية من طعمية، وفول تم تدميسه في القدر الكبير والمدفون في الرمال الشديدة السخونة التي كانت تسمى (الوقيد). كم كانت حياته بسيطة، هادئة. كان خياله يخلق وسط سحب الذكريات ليقطع ذلك فجأة صوت طنين الهاتف بنغمة أخرى ثقيلة إلى قلبه. تذكره بأن هناك أمرًا جللًا قد استدعى صاحبه الاتصال به في هذا الوقت المبكر!

ظهرت على سطح الجوال صورة عائلية له مع زوجته، وأولاده. فتلك الصورة هي الصورة المخصصة لزوجته التي

تذكُّره بالتأكيدِ بواجبِ اجتماعيِّ هامٍّ في هذا الوقتِ المبكرِ من اليوم.

ضغطَ مرَّةً أُخرى على الزرِّ الأخضرِ بعدَ أنْ أخرسَ مؤقتًا صوتَ الـ"كاسيت" العاليِ في غضبٍ واضحٍ.

– خير يا (هُدى) أكيد في حاجة !
ردَّت زوجته؛ وهي تتحدَّثُ بكلماتٍ متثاقلةٍ تؤكِّدُ أنَّها مازالتْ في حالةٍ عدمِ استيقاظٍ كاملٍ.

– أيوه يا (خالد)...متنسأش تدفع مصاريف الأولاد النهارده في المدرسة النهارده آخر يوم مع السلامة..

كانت المكالمَةُ أشبهَ بطلقةٍ نافذةٍ اخترقتْ قلبَ هذا اليومِ المضطربِ من البداية. لم يعرفَ ماذا سيُفعلُ ؟

هل سيذهبُ إلى الشركةِ أوَّلاً أم إلى المدرسةِ لدفعِ المصاريفِ ؟
قَرَّرَ أخيراً الاستدارةَ بالسيارةِ، والعودةَ إلى المدرسةِ الواقعةِ على الطريقِ الصحراويِّ.

ضغطَ (خالدُ) علي دواسَةِ "البنزين" بأقصى درجةٍ حتي يستطيعَ أن يصلَ إلى المدرسةِ. حاولَ أن يستعيدَ تلكَ الحالةَ من الصَّفاءِ الذَّهنيِّ التي تملكتهُ في بدايةِ سَيره بالسيارةِ، ولكنَّ هيهاتَ فالتَّوتُّرُ أصبحَ يحتاجُ جميعَ أوصالِهِ فقد كانَ كَمَن يقومُ بتنفيذِ مهمَّةٍ مستحيلةٍ مخبراتيةٍ.

كانَ الطريقُ ممثلاً بلونِ الصَّحراءِ الأصفرِ. ذكَّرَهُ ذلكَ على

الفور بأيامِهِ في الجيشِ عندما كان مُجَنِّدًا!

(عبد الحميد الصعيدي)، و (سيد أحمد الدلتاوي)، و (خالد) ابن (حي السيدة زينب) القاهري. كان الثلاثة أشبه بالأخوة في تلك الكتيبة القابعة في قلب صحراء الواحات. تذكر كلمات (عبد الحميد) ابن (قنا) عندما كان يتهكم عليهما هو، و (سيد أحمد) عندما كنّا نتحوّل بفعل الحرارة إلى ورق أشجار أصفر بينما كان يطلق ضحكته الكاشفة عن أسنانه البيضاء على وجهه الأسمر الطويل.

– (يا عيني على العيال النايطي...)

يا واد شد نفسك بدل ما نتعلق بسبيكم يخرب مطنك انت

(وهو)

كالمعتاد قطع ذكرياته، ومنظر الصحراء المترامي طنين هاتفه بصورة عائلته يظهر مرة أخرى على سطح جواله. ضغط على الزر الأخضر كانت زوجته مرة أخرى.

– أيوه يا (هدى) والله في السكة... أنا قربت أوصل

للمدرسة....

بينما يتحدث بدأ تدريجيًا صوت زوجته يختفي بالتدريج

ليتبخر تمامًا بفعل انقطاع الشبكة.

أخيرًا وصل (خالد) إلى المدرسة المتعددة الجنسيات القابعة

في قلب الصحراء. وضع سيارته في "جراج" المدرسة. دخل مسرعًا

إلى الحسابات ليدفع أقساط المصاريف بما كان يملكه من كروت
ائتمانية متنوعة. في سرعة البرق عاد (خالد) إلى سيارته؛
تحرك على نفس الطريق عائداً إلى المدينة.

اختصاراً للوقت اختار (خالد) طريقاً مختلفاً للوصول إلى
المدينة. نظر إلى ساعة يده وجد أن ميعاد الاجتماع الهام قد
جاء. عادت الشبكة مرة أخرى ليبدأ هاتفه في الطنين بالعديد
من النغمات لتتسارع دقات قلبه، ويتصبب العرق من جبهته
بالرغم من تكييف السيارة القوي.

بدأ الطنين يتكرر مرة أخرى؛ نغمة (فيروز) العامة ثم،
نغمة المدير الرسمية تلاحقها نغمة زوجته الموترة!

شعر (خالد) بأقصى درجات القلق كانت رنات الهاتف
النَّقَالَ تتلاحق كالأمواج المتلاطمة في عاصفة هوجاء.
حاول أن يخرس هاتفه الناعق بالرنين المتواصل.

تدريجياً بدأت تختفي الرنات؛ نظر في هاتفه ليجد أن شبكة
تغطية الهاتف قد اختفت مرة أخرى عند اجتياز سيارته إلى
قلب الصحراء.

عادت دقات قلبه إلى حالتها الطبيعية بعد سباقها الـ
"مارثوني".

قرّر فجأة إيقاف السيارة وسط الصحراء بعد أن خرج عن
الطريق الأسفلتي ليتوقف بعد أن قطع شوطاً طويلاً بعيداً

عن الطريق المخترق للصحراء عنوةً.
شغل "كاسيت" سيارته على أعلى صوتٍ صائحًا "بفيروزيات"
الصباح بعد أن خرجَ منها، ووقفَ بجوارها ليُشعلَ سيجارًا
"أمريكيَّ" الصُّنعَ مُطلقًا أنفاسَهُ في الهواءِ بينما يستمتعُ
بأغانيهِ المفضلةِ، وهواءِ الصَّحراءِ النقيِّ، والذكرياتِ فهو
الآنَ خارجُ نطاقِ الشبكةِ!

تمت

(دموع ساخنة)

قالت وفي صوتها الأشواقُ تنتحرُ
تشكو الليالي ما أخفى لها القدرُ
هذي السنون تمطّت فوق أوردتي
تستعصرُ القلبَ لا تبقي ولا تذرُ
فأين كنتِ وأنتِ تحاصرني
ونارُ شكّي لها في الروحِ مستعرُ!

محمد فاروق



(٩)

(دموع ساخنة)

لَمْ يَدْرِكْ (طاهر) هذا الرجلُ الخمسينيُّ العمرَ ما الذي
تهدفُ إليه زميلتُهُ القديمةُ التي تَمَّ تعيينُها قبلَهُ بشهورٍ
قليلةٍ منذُ فترةٍ تمتدُّ لسنواتٍ طويلةٍ.

(فريدة) امرأةٌ قويَّةُ الشخصيةِ تنتمي لأسرةٍ عريقةٍ حصلتْ
على وظيفتِهَا الهامةِ والحيويةِ معه في الهيئة الحكوميةِ
نفسِها بنفوذِ أسرتها المتجذِرِ في تلكِ المدينة الساحليَّةِ الهادئةِ.
لطالما لفتَ جمالُها الهادئِ ذو البصمةِ التركيَّةِ الواضحةِ
زملاءَها في العملِ، وحتى المترددين من الجمهورِ على هذا
المكانِ الخدميِّ الهامِّ لم يستطيعوا الصمودَ دونَ الإعجابِ بهذه
اللُّوحةِ الفنيَّةِ المتوهجةِ...

قائمةُ المولعين بها الذين تجرَّؤوا على الاقتراب منها
متنوعةٌ للغاية حيثُ شملتِ العديدَ من الألوانِ والأصنافِ
الذكوريَّةِ الذين تساقطوا واحداً تلو الآخرِ على أسوارها
المنيعَةِ المدعومةِ بشخصيةٍ قويةٍ ذاتِ جاذبيَّةٍ طاغيةٍ مع أنوثَةِ
فَوَاحَةٍ قوامها الرئيسيُّ جمالُ مخدومٍ بمهارةٍ عن طريق ارتداءِ
أعلى الأزياءِ الراقيَّةِ والمحتشمةِ في ذاتِ الوقتِ، والتزيينِ

بأثمن المشغولات الذهبية التي تعبّر عن (فرسة عربية أصيلة)
ثمن قلبها لا يقدر بمال.

تقرب إليها كل حالم بامتلاكها ؛ يفعل أي شيء لينال
الرضا ، ولكن بمجرد أن كان يشعر لوهلة قصيرة مؤقتة
بقدر يسير من وميض اهتمام بدأ يلوح في الأفق من نجمة السماء
اللامعة. !

ليتفاجأ منها بانقلاب حادّ عنيف يجعله مضطراً للانسحاب
السريع أمام هذا الإعصار المناخي الجامح.
لم يتجرأ (طاهر) على أن يشارك جميع زملائه في محاولاتهم
الفاشلة للوصول إلى قلبها.

واقعيته الموروثة عبر أجيال من مُنتسبي الطبقة
الوسطى ؛ ألزمتهم بعدم الحلم بما لا يستطيع الوصول
إليه ، وللمصادفة فقد بدأ عمله معها ، وهو عاقد الخبطة على
إحدى قريباته من نفس ساكني الطبقة الاجتماعية المتوسطة
الرأسخة.

لاحظ كثيراً تعاملها معه كصديق فهو دون كل زملائه
اعتبرته رمزاً للثقة ، والزّمانة الأخوية الطابع المصحوبة
بالاحترام المتبادل.

مؤخراً بعد أن وصلت إلى قمة السلم الوظيفي في تلك
الهيئة الحيوية بدأ الاحتكاك الوظيفي بينهما في الازدياد

؛ حيث تمَّ تعيينه نائباً لها بشكل مفاجئ.
بالرغم من مرور سنين عديدة على تلك الزمالة، ولكنه لم يفهم هذا السلوك الغريب الطابع الحديث عليها.
مسا حيق التجميل الكثيفة عادت بعد غياب لتغطي وجهها الأبيض الذي بدأت تغزوه مؤخرًا أزاميل الزمن من تجاعيد وتهذل واضح مع مبالغة في الاهتمام بمظهرها، وإبراز جمالها السابق، والذي اختفى الاهتمام به منذ سنوات قليلة بعد أن غادرها قطار الزواج والارتباط!
سأل (طاهر) نفسه

– لماذا هذا التغيير الحاد الذي جعلها تعود مرة أخرى لسيرتها الأولى من التباهي برحيقها القديم. ؟
أنتنوي الارتباط في هذا العمر بعد أن حطمت قلوب الفدائيين من راغبي الوصول إلى سطح القمر ؟!

في إحدى المرات تمَّ استدعاء (طاهر) على عجل إلى مكتبها. دعتُه ليجلس بجوارها على الكراسي العريضة المكتبيّة الجلديّة الغطاء، بدأت في مناقشة في العمل بكل حريّة وجديّة بينما هو كان يتأمل في صمت تلك الزهرة الأوربيّة المتزيّنة بكافّة ألوان التجميل الكثيفة، والمتعطرة بأغلى العطور التي تخضع أرواحاً مستعصية على الرضوخ!
بينما يتحدثان توقفت عن الكلام، ونظرت مباشرة في

عينه، والذي بالمصادفة كان يبحث في ملامحها المرسومة بهذا
القلم الإلهي البديع...

لَمْ يتحمل هذا الخمسيني تلك القذيفة الحارقة من هاتين
العينين الخضراوين. أحمرَّ وجهه، وتلَعَثَمَ لسانه اللَّبِقُ بينما
يُعَدِّلُ من نظارته المربعة المدلاة على أنفه.
سألته (فريدة) في سرعة خاطفة...

— ما بك يا : طاهر؟

أفي حديثي ما جعلك ترتبك إلى هذا الحد؟

— بادرها بالردِّ في لَجَلَجَةٍ واضحة...

— لا أبدًا أنا بخير، والحمد لله، ولكنني فقط لَمْ أُنَمَّ جيّدًا
بِالْأَمْسِ لأنَّني كنتُ أذاكرُ لأولادي دروسَهُمْ فقد أردتُ أن
أخَفِّفَ الحِمْلَ الثَّقِيلَ عَنْ أُمِّ العِيَالِ التي لا تَدْخِرُ
جهدًا من أجل نَجَاحي أنا، و الأولاد!

لَمْ تنتظر (فريدة) أَنْ يُكْمِلَ (طاهر) كلامه عن سبب
ارتبأكه.

استأذنت منه على عَجَلٍ بِحُجَّةِ نسيان أوراق مهمّة
بالمكتب الصَّغير المُلْحَق بمكتبها الصَّخْم؛ تَرَكْتُهُ
بالمكتب وحيدًا لدقائق معدودة لتعود مرة أخرى إليه ليُكْمِلَا
حديثَهُمَا في المشروعات الموكلة إلى هيئتهم الخدمية
الهامة بعد أن أزالَت مساحيق التجميل الكثيفة، والتي لَمْ

تستطع الصُّمُودَ أَمَامَ قَطَرَاتِ دُمُوعٍ سَاخِنَةٍ أَشَاحَتِ الْغَطَاءَ
عَنْ وَجْهِ أَنْثَى حَاولَتْ أَنْ تَعِيدَ الزَّمْنَ إِلَى الْوَرَاءِ مَعَ مَنْ كَانَتْ
تَحُبُّهُ فِي صَمْتٍ مِنْذُ زَمَنِ طَوِيلٍ !

تَمَّتْ

(سُؤْفَان)

خبأتها في قاع أغنيتي
وبقيت خلف البابِ
واللحن المميز للغيابِ
يجـوب أوديــــــــتي
ويـؤذن بالـإيابِ!

فرغلي الخبيري



Carrand with Pam Carrand

(١٠) (سُوفَان)

أدرك أخيراً أنه وصل مع حبه الوحيد، وزوجته الشابة إلى طريق مسدود بكافة العوائق بعد سنوات من الشد والجذب في علاقة حب أحادية حاول أحد طرفيها الحفاظ على نسيجها من التفسخ، ولكن أبى خيط الحرير الرفيع بينهما التماسك بعد أن أضحى إعلان نهايته حتمياً!

(عصام) المهندس الفذ ابن الطبقة الوسطى عاد منذ فترة من الخليج العربي بوضع اجتماعي ومالي مبهر من كافة الجوانب كمهندس برمجيات عالمي تلقى تدريبه في وادي "السليكون الأمريكي"، وشهد كافة تطورات وقفزات البرمجة العالمية بتعاقد فلكي الأجر مع مؤسسة سعودية واعدة. جمع هذا المهندس الشاب مبلغاً ضخماً من هذه الدولة النفطية الصاعدة وأسّس لنفسه شركة ضخمة للبرمجيات في بلده الأم مصر. حسد زوجته الجميع سواء من صديقاتها، أو أقربائها على تلك الزيجة بهذا الشاب الواعد، وزفافهما الأشبه بموسم تفتح الأزهار فقد فضلها عن كافة بنات العائلة العديدة الأفرع كشجرة عتيقة، والتي تتنوع أوراقها بين كافة

الألوان فقد اختار (عصام) تلك الزهرة البريئة الجميلة المتمردة عادةً تختال بجمالها الاستثنائي من وجه أبيض محدّد الملامح تعبر عنه في شموخ عينان واسعتان، وشعر فحمي السواد بالإضافة إلى تعليم جامعي رفيع (بالجامعة الأمريكية) ممّا جعلها تنفوق على كلّ فتيات العائلة في حلبّة السباق إلى قلب هذا الأمير العائد منذ بداية علاقتهما كعائلتين. لفتت تلك الفتاة الثائرة انتباهه، وكم كان مغرمًا بنموذج الفتاة الغربية الاستقلالية التي تختلف جذريًا عن أنثى مجتمعه الشرقي المترددة الخجولة، والمسلمة عن طيب خاطر بإدارة مستقبلها إلى شريك الحياة من رجال القبيلة الاجتماعية المحيطة. بدا لقاؤهما الأول حادًا عاصفًا، فالموضوع محلّ المناقشة يبدو أنّه استدعى ثورة الطرفين!

— عادة: يبدو أنك من الساخطين على مجتمعات الغرب بالرغم من أنك ممن استفادوا للغاية من تنظيمهم الاجتماعي المحكم...

— عصام: لست ساخطًا على هذا المجتمع النابض بالحيوية، ولكنني فقط أعترض على غياب النزعة الروحانية في مجتمعاتهم، وانعدام العلاقات الإنسانية، والعائلية المترابطة التي تتمتع بها عائلتنا المصرية والعربية.

غادة: أختلف معك تمامًا مهندس (عصام) هذه العلاقات هي الجزء السلبي الرئيسي في أوطاننا، حيث نحكم على أنفسنا بالخضوع لتلك الروابط البالية التي تعوقنا عن التطور العلمي، والمجتمعي.

اللقاء العاصف حمل بذور إعجاب مضاعف داخل قلبه بهذه الشخصية النارية الواثقة من نفسها.

حدث الزواج سريعاً تحت ضغط عائلي مطبق على تلك الفتاة الجامحة الراضية لهذا الخضوع المبكر لإدارة الذكر الغني الناجح...

بعد فترة قصيرة من الزواج طفا الخلاف على السطح، واتضح أن الهوة عميقة بين الزوجين؛ هو يبحث عن حب وحياة عائلية هادئة، بينما هي لا تبالي بعائلتها الجديدة؛ مقاومة هذه العبودية الاجتماعية حسب قناعتها الراسخة!

راهن (عصام) على عاملي الوقت وقدرته الإنسانية والمادية على تعديل شخصيتها الهوجاء لتتحول حياتهما إلى موجات مضطربة متلاطمة من الصعود والهبوط؛ فالصعود تم تحفيزه بالسفر المستمر إلى كافة دول العالم مع الإغداق عليها بالهدايا الثمينة، وإشباعها بـ"حياة المولات" التجارية العالمية الصاخبة ليغقب ذلك موجات

هبوط تتمثل في حياة عائلية روتينية يُقلِّقها رأيُّ عامٍ عائليٍّ ضاغطٍ ينتظر وريثاً متوقَّعاً لهذا المهندس الناجح. حاول الزوج التَّغاضي عن تلك الخلافات المتواليَّة مُبرِّراً ذلك بعقليَّتِهِ "الكمبيوترية" التي تجعله يعتقدُ أنَّه قادرٌ على حلِّ أيَّة مشكلةٍ عويصةٍ بمنطق "برمجي" بحث. وصلت تنازلاته التي حاول أن يخدع نفسه بتقبُّلها أنَّه وافق على سفرها إلى إحدى الدول الأوربيَّة لتكملَ دراسَتِها الجامعيَّة بحجَّة أنَّها لا تريدُ تلك الحياة النمطيَّة التي لا تختلف كثيراً عن حياة أية ربَّة منزلٍ متواضعة التعليم.... وافق (عصام) صاغراً مع تفهُّمه المصطنع لتلك الطموحات النسويَّة الحادة الطارئة.

لم يتخيَّل (عصام) أنَّ انفصالهم سيتمُّ في رحلته إلى زوجته الشابة في منزلها الجديد في ذلك المنزل الريفِّي المجاور لمقرِّ دراسَتِها الجامعيَّة الجديدة!

سافر إليها ليمنِّي نفسه بإقامة هادئة في مكان له طبيعته الخلابة بعيداً عن ضغط العائلات وتمنَّيات الأصدقاء. طرق الباب وهو يحمل "بوكيه" وردٍ متنوع الألوان أحضره معه من القاهرة مغلفاً بـ "السولوفان" بينما يحمل في جيبه خاتم "سوليتر لازوردي" ثمين.

فتحت (غادة) الباب لتتفاجأ برؤيته دون إبداء أيَّة علاماتٍ

سعادةٍ بقدميه بل على العكس بدت مرتبكةً وغير مرحّبةٍ بحضوره الغريب! تحرّك (عصام) نحو أريكةٍ بجانب الباب الخشبي، وجلس وملامح وجهه ترتسم عليها خطوط الضغط العصبي والحنق المرير خاطبها لأول مرةً بدرجةٍ عاليةٍ من الصراحة والحنس.

عصام: ألّهذه الدرجة غير سعيدةٍ بحضوري ؟
تخيّلْتُ أنّ مجيئك هنا سيغيّرُك، ويبرّد قلبك، ويجعلك راضيةً بحياتنا بما قدمته أنا من تنازلات جعلتني أبدو أمام الناس كعبدٍ يسلم مفتاح حريته إلى سيّدٍ لا يرحم!
أرجوك أجيبي بصراحةٍ، وبدون مبرراتٍ جوفاءٍ!

غادة: تريدُ صراحةً بلا تبريرٍ مزيّنٍ بأكاذيبٍ، وأوهام. أنت تعرفُ حقيقةَ علاقتنا منذُ البداية تزوجنا تحت ضغطٍ أهلي العنيف المدفوع بإمكانياتك المادية، والاجتماعية، والتي لا يستطيع أيُّ عاقل أن يقفَ أمامها دون أن يركع في خنوع! أنا أحترمك يا (عصام) وأقدّرُك، وأنت إنسان طيبٌ، وأعلمُ أنّك تستحقُّ حياةً عائليةً مستقرّةً مع زوجةٍ ضئيلةٍ الأحلام كما يعيش أهلنا في مصر.

سمع في النهاية بأذنيه حقيقةَ علاقتهما الزوجية فقد كانت أشبه بجبلٍ ثلجٍ ظهرت قمّته الصغيرة الطافية على السطح للمجتمع متمثلةً في زوجين مثاليين، بينما في عمق

المحيط جَبَلٌ عميقٌ من التباعد والنفور.

تم الانفصال في هُدوءٍ في القنصلية المصرية في عاصمة تلك الدولة الأوروبية. اتخذ قراره الصَّغْبُ بأن يُنْهِيَ زواجًا لم ترغب فيه أبدًا. امرأة شابة قابلت بفتور زوجها القادم إليها قاطعًا ساعاتٍ من السَّفَرِ عَبْرَ البحر المتوسط.

مرت السَّنَوَاتُ، وتزوج (عصام) من زميلة قديمة له في الدراسة الجامعية قابلها صدفة في إحدى المناسبات الاجتماعية لخريجي دفعته من كلية الهندسة. استمرت متابعتها في الخفاء لأخبار (غادة) التي لم يتمكن أبدًا من تفسير سبب انهيار علاقته بها في غياب سبب منطقي. عرف مؤخرًا عن طريق بعض أصدقائهم المشتركين أنها خضعت لجراحة إزالة ورم في المخ في مشفى كلية الطب بجامعة الأوربية التي تدرس فيها نتج عنه اضطراب هرموني وعصبي ونفسي بالغ الشدة. لام نفسه بقسوة على تخليه عنها فربما كانت تقلباتها المزاجية معه ما هي إلا بدايات أعراض هذا النوع من الأورام المخية والتي تقلب المشاعر الإنسانية، وتجعل المريض أسيرًا لقرارات نفسية غير مفهومة. عاش (عصام) مع زوجته الجديدة في هدوءٍ أسريٍّ مثاليٍّ؛ بينما قلبه يجلد عقله، وروحه بلا رحمة بسبب تخليه عن حُبِّه السابق ليعيش حياته في عذاب ضمير صار دون أن يعلم الحقيقة، وهي أن سبب مرضها الطارئ هو

تناوُلها لِفتراتٍ طويِلةٍ لأقراصٍ مانعةٍ للأُنجابِ حتّى تَبْقَى
على حالِها بدونِ أَطفالٍ كفتاةٍ مُستقلّةٍ ترفضُ الخُضوعَ إلى
قَدَرٍ مجتمعيٍّ يرسمُ لها إطاراً محدّداً تعتقِدُ أَنَّهُ سيكونُ بمِثابَةِ
سجَنٍ لِشخصيّتها ، وطموحِها حتّى لو كانَ سجنًا من ذهبٍ !

تمت

(طيفُ ذِكْرِ عَائِلِيَّةِ)

يَا مَنْ تَحَدَّيْتُ فِي حُبِّي لَهُ مُدُنًا
بِحَالِهَا وَسَامِضِي فِي تَحَدِّيَّهَا

نزار قبّاني



(١١)

طيفُ ذِكْرِ عَائِلِيَّةٍ

نادتِ الأمُّ الخمسينيةُ العمرَ على أبنائها الثلاثة في محطة
القطار المركزيَّة ، والمزدحمة دائماً بالمسافرين. بالرغم من
ارتدائها الحجاب إلا أنَّ بعضَ خصلاتِ شعرها الأبيضِ أعلنت
عن عمرها الحقيقيِّ حتى مع المحاولاتِ الحثيثةِ لصاحبِتها
لتُخَفِّي بصماتِ الزَّمنِ عَلَيْهَا ؛ حيثُ تَرْتَدِي ثياباً
شبابيةً سوداءَ أنيقةً لتبدو أصغرَ سنّاً بين أبنائها الشباب.
يبدو أنني قد رأيتُ هذه السيدةَ من قبلُ منذُ زمنٍ بعيدٍ ،
إنني أعرفها ولكنَّ ابتعادي عن مدينتي الصغيرةِ فترةً طويلةً
جعلني ضعيفاً مؤسِّمياً كالطيرِ المهاجرِ الذي يعودُ في توقيتِ
ثابتٍ سنوياً مُحدِّدَ الفصولِ. تابعتُ خطواتها المتسارعةَ
وأبناءها الشبابَ للحاقِ بالقطارِ الذي سافرُ فيه إلى مدينتي.
حملَ الابنُ المراهقُ المفتولُ العضلاتِ حقائبَ العائلةِ بينما سارتِ
أختاهُ بجانبَي والدتيهما حاملاتِ لحقائبِ اليدِ الخفيفةِ ،
وهي تقبضُ على يديهما بقوةٍ حتَّى يظنُّ الناظرُ إليها أنها
تمسكُ بكفِّي طفلتين ، وليستا شابتينِ جميلتينِ في أوجِ
التَّالِقِ ، والأنوثةِ الأوربيَّةِ الملامحِ.

صعد الجميع إلى القطار في عربة الدرجة الأولى ، وأنا
من خلفهم ليجلسوا جميعاً أمامي في أربعة كراسي متقابلة.
تحرك القطار السريع ، ومازلت أتابع تلك العائلة الصغيرة ،
وتلك المرأة ذات الوجه المألوف...

بعد مرور ساعة على تحرك القطار أخرجت الأم علبة
بلاستيكية كبيرة من إحدى حقائب اليد. فتحتّها في هدوءٍ
لتُخرج منها طعام العشاء في هذا الوقت المبكر من الليل.
بدأت عليهم جميعاً علامات السعادة الغامرة بينما يأكلون
الطعام في حميمية واضحة جعلتني أعصر ذاكرتي لأتذكر هذه
المرأة المخفية داخل جزء ما في ذاكرتي المكتظة بالأحداث...
تحركت المرأة بخفة واضحة بصحبة إحدى الشابتين
نحو عربة "الكافيتريا" لشراء المشروبات الساخنة لتكتمل
ليلتهم في القطار بهاء ، وروعة...

مرّاً بجواري في المسافة الضيقة بين مقاعد العربّة.
إقتربت السيدة أخيراً من مقعدي لأراها عن قرب بعد أن
تخطتني بأمّطار بدأت صورتها الحالية والمألوفة لي تخترق
كهوف الذاكرة.

نعم تذكرتها ! أو بالأحرى تذكرت شبيبتها الأصغر سنّاً
خصوصاً وقد رأيتها ، وأنا في سن صغيرة في إحدى المناسبات
العائلية ؛ امرأة في منتصف عقد الثلاثينيات من العمر ،

وبسبب عملها المتواصل في المواقع الإنشائية كمهندسة مدنيّة جعلها لا تدرك قطار الزواج والارتباط؛ أكسبها العمل الجاف مع العمّال والمقاولين وزملائها من المهندسين درجة عالية من الخشونة، وقوة الشخصية. لكنّها لم تصمد أمام ضغط أسرتها المتوسطة ذات الأصول البسيطة!

إلحاح الأم الدائمة البكاء على حال ابنتها الوحيدة كان بمثابة طرقات آلة صلبة على قلب تلك الشخصية الناجحة. "لن يفيدك يا (ماجدة) لقب "الباشمهندسة" دون الزواج، والارتباط برجل يحميك من تقلبات الزّمن. صدّقيني بدون عائلة خاصّة بك ستعيشين كاليتيمة، وأخوك الأكبر (عبدالله) لن يغنيك عن الزواج، وإنجاب العيال!

بيته وعياله سيكونون أولوياته الوحيدة "

طفّت على سطح الذاكرة مشاهد خاطفة من هذا الرّفاف المبهّر بكلّ المقاييس القاعة تمتلئ بأهل العروسين من قاطني تلك المدينة الصغيرة في قلب الدلتا فقد تمّ عقده في أفخم، وأعلى فنادق (الإسكندرية) ذات (الخمس نجوم)، والتي تتمتع بدرجة عالية من العراقة والشهرة.

عقد القران في مكان بتلك المواصفات هو الشرط الوحيد الأهم لهذا الأخ الأكبر للمهندسة النشيطة.

تكررت كلمات الأم في رأسها كلّما اختلّت بنفسها. بدأت

الطرقاة العنيفة لناشدات الأم تُؤتي أكلها بأن اضطرت في النهاية للقبول بالزواج من هذا المحامي الشهير.

(سليم) المعروف في بلدتها بثرائه، وحسن أخلاقه.

المحامي الشهير (سليم) شخصية نموذجية فهو من أشهر محامي جيله أكسبته فترة عمله في القاهرة مع عمالقة القانون خبرة لا يُشَقُّ لها غباراً.

أمطرته المحاماة بأموالها وشهرتها، وذلك جعله حديث المدينة الصغيرة... الزفاف المبهر المستضيف لأعلى طبقات المجتمع كان سبباً في الفرح الغامرة لتلك الأم السعيدة بانتهاء عزوبيّة ابنتها. بينما الأخ الأكبر لم يشاركها نفس الدرجة من الفرح!

جلس كلا العروسين في المكان المخصّص لهما في صدارة تلك القاعة المهيبة التي تعج بالضيوف، والصاخبة بنغمات الموسيقى من طبل وزمر. شعر الزوج بخوف زوجته الجديدة، وأدرك بذكائه وخبرته في الحياة سبب ذلك. ناظراً إلى الحاضرين في الحفل المهيّب بدأ المحامي في الانفصال عن الحضور ليسبح في أمواج من الذكريات الثقيلة الوطء على قلبه الضعيف.

— يا الله!

ها أنا أجلس في الموضع نفسه تقريباً للمرة الثانية بعد

عشر سنواتٍ كاملةٍ كانتَ بمثابةِ حربٍ شَعَوَاءٍ انتهتْ بشكلٍ
مأساويٍّ!

تذكّر المحامي اللامعُ زيجتهِ الأولى من إحدى فتياتِ الطبقةِ
الراقيةِ. كيف كان حُلماً سعيداً انتهى "ككابوس"!؟

عاملتهُ بتعالٍ نظراً لأصولهِ البسيطةِ من فلاحي الدلتا
الفقراء. تزوجتهُ طمعاً في ثروتهِ ليس إلا؛ فهي سليلَةٌ إحدى
العائلاتِ ذاتِ الأصولِ التركيةِ الشهيرةِ، والتي برغمِ تضاولِ
ثرواتها إلا أنها لا تزالُ في قمةِ هرمِ الطبقةِ العليا.

في زفافٍ أسطوريٍّ حضرهُ نخبةُ المجتمعِ وقتها ارتبطتْ
صاحبةُ الحسبِ والنسبِ بالمحامي الصّاعدِ من قاعِ المجتمعِ.

سرعانَ ما ظهرَ الفارقُ بينهما جليّاً؛ زوجٌ ريفيُّ الأصولِ
محافظٌ التوجّهِ مع زوجةٍ متحرّرةٍ، ومتمردةٍ لا ترى أيةَ
سيطرةٍ لهذا الذّكرِ الشرقيِّ المزاجِ على هذا الطاووسِ المختالِ.

بعد اشتباكٍ دامَ دقائقٌ مع ذكرياتهِ عادَ (سليم) إلى أرضِ

زفافهِ مع المهندسةِ الشابةِ. شعرَ بحالةِ الخوفِ التي تعتريها

من هذهِ العلاقةِ الشرعيّةِ المغلفةِ بالضرورةِ يعلمُ جيداً أنها

قبلتِ الزواجَ بهِ على مَضَضٍ. فلو كانتَ أصغرَ سنّاً حتماً لرفضتِ

الارتباطَ برجلٍ منفصلٍ حديثاً عن زوجتهِ ابنةِ الدّواتِ بعد

اشتباكاتٍ قضائيّةٍ في محاكمِ تلكِ المدينةِ الصغيرةِ، والتي

ظهرتْ فيها الخلافاتُ الزوجيةُ للمحامي الواعدِ بمثابةِ حديثٍ

المدينة الريفية الطابع.

قبض (سليم) على يد زوجته بيده الخشنة، والتي اعتادت منذ الصغر على العمل الشاق في الفلاحة والزراعة حتى أثناء التحاقه بكلية الحقوق. نظر إليها من خلال نظارتها الفضية الإطار. ابتسمت له لتخفي قلقها المستعر بداخلها.

أدركت بشخصيتها العملية أن طريقاً شائكاً ينتظرها في حياتها الجديدة، وليس كما يعتقد البعض مفروشا بالورود. صوت المغني القاهري الشهير يصدح داخل الفندق الفخم تحيط به الفتيات الحاضرات للعرس، والمرديات لأفخر الفساتين "السواريه" المرصعة بالأحجار الالامعة. لاحظت العروس جلوس فتياتين صغيرتين ترتديان فستانين بيضاوين وكانتا في جزء منعزل من القاعة، وهما في حالة حزن صامت على الفور تركت الزوجة مقعدها في القاعة لتخطو مسرعة يعوقها ثوب الزفاف الأبيض الطويل لتتقدم نحو الفاتيتين.

توقف الجميع عن الرقص، والغناء بحركة العروس المفاجئة. ليجدوها تمسك بكففيهما ساحبة إياهما في حنان ورقة إلى "الكوشة" حيث تجلس مع والديهما. امتلأت عينا المحامي الصلب الطباع بالدموع من أثر هذا المشهد.

زوجته الجديدة تعطف على ابنتيه الاثنتين من زوجته الأولى بعد أن لاحظت وحدتهما وشعورهما بالتوهة واليتم

لزواج أبيهما من امرأة جديدة!

كَمْ كَانَ هذا الموقفُ مرجفًا لقلبِ المحامي الضعيفِ.
أخيرًا شعرَ أنَّ اختيارَهُ ربَّما كَانَ صائبًا عَادَ إلى ذاكرتهِ على
الفورِ هذا المشهدُ القاسي الذي مرت به الفتاتان حينَ هرولِ
وقتها مسرعًا إلى داخلِ قسمِ شرطةٍ في أحدِ أحياءِ القاهرةِ
الراقيةِ جاءَهُ اتصالٌ مِنَ الضابطِ المُنوبِ في هذا الوقتِ المتأخِرِ
من الليلِ للحضورِ على الفورِ. حاولَ أن يفهمَ من الضابطِ سببَ
استدعائه. لم يُردْ هذا الضابطُ الشابُّ إخبارَهُ عن السببِ حتى
لا يجعلُهُ تحتَ ضغطِ نفسِيٍّ لما سيراهُ في قسمِ الشرطةِ من شيءٍ
مؤلمٍ للنفسِ.

وَصَلَ المحامي أخيرًا إليه لِيُفَجَعَ بما رآهُ!

طفلتاه الصغيرتانِ تَجَلِسانِ على دَكَّةٍ خشبيةٍ، وجههما
الأبيضُ النضيرُ تحولَ من فعلِ البُكاءِ المستمرِّ إلى أوراقِ شجرٍ
جافةٍ شاحبةٍ؛ حيث إنَّ هولَ ما حدثَ لا يَتَحَمَلُهُ قلبهما الرقيقُ.
تركتهما والدتهما "بنت الذوات" بعدَ عَمَلِ محضرٍ بالشرطةِ
ليتمَّ تسليمُهما من خلالِ القسمِ إلى والدهما!

لم تردِ تلكَ الزوجةُ المتمردةُ أن تَرى زوجها السابقَ وعيناه
تمتلئانِ بصورةِ الانتصارِ القضائيِّ السَّاحِقِ بقدراته القانونيةِ
الاستثنائيةِ.

فبالمقابلِ سَدَّدَتْ له ضربةً نافذةً إلى قلبهِ المريضِ بجعلهِ يتألمُ

لرؤية طفلتيه في هذا الموقف الإنساني الصعب.
استلم الأب ابنتيه اللتين عرف منهما خبر زواج أمهما
وسفرها إلى خارج البلاد بعد أن اشترط الزوج الجديد أن تتنازل
عن حضانه طفلتيها.

انتهى الزفاف، وعاد العريس بعروسه إلى بيته الكبير في
سيارته "المرسيدس" الصفراء مميّزة اللون المزيّنة بالشرائط
المتنوعة الألوان ابتهاجاً بالعروس الجديدة يقودها سائق شاب
نوبي الأصل. أقلّهم إلى "فيلا" المحامي الكائنة في إحدى
أحياء (الإسكندرية) الراقية لتبدأ المهندسة (ماجدة) رحلتها
مع تلك العائلة المكلّومة! جال بخاطري طيف الماضي، وهذا
الفرح الفخم الذي حضرته شاباً صغيراً مع بعض الأصدقاء الذين
تكفلوا بسرّد وقائع وملابس تلك الزيجة المرتبكة.

يا الله كم أن الزّمن أعاد تشكيل هذه المرأة إلى أن أصبحت
أمّاً لثلاثة شباب يافعين! من المؤكّد أنّها لم تتحمل عبء هذه
العائلة السيئة الحظ، ومن الأكيد أنّها حالفها الحظ مع رجل
آخر تزوجته وأنجبت منه هؤلاء الشباب الواعدين، فقد سمعت
أن المحامي الشهير قد سقط مغشياً عليه في إحدى المحاكم أثناء
مرافعته في قضية ذائعة الصيت في (دار القضاء العالي)؛ لفظ
المحامي أنفاسه الأخيرة قبل وصول الإسعاف! لتترمل تلك
الزوجة الحديثة بعد مرور سنة واحدة فقط من زواجهما.

اقترب القطارُ من الوصولِ إلى رصيفِ المحطةِ النهائيةِ.
نهضَ الرُّكَّابُ من مقاعِدهم ليتوجهوا إلى بابِ الخروجِ.
حملَ الابنُ الشابُّ حِقائبَ العائلةِ بينما قبضتِ الأمُّ على
كفِّي الشابتينِ مرَّةً أخرى لتركوا القطارَ مسرعينَ صوبَ
المدخلِ الرئيسيِّ للمحطةِ في مدينتنا الصغيرةِ حيثُ ظهرتُ في
الأفقِ سيارةٌ (مرسيدس) صفراءَ قديمةِ الطرازِ يقودُها سائقٌ
أسمرٌ ذو شَعْرٍ وذنٍ أبيضَ لتنتهيَ رحلتي مع تلكِ السيدةِ
الخمسينيةِ العمرِ وعائلتها.

تمت

(نادرُ الحُدُوثِ)

ثُمَّ انْقَضَتْ تِلْكَ السُّنُونُ وَأَهْلُهَا
فَكَانَ هَا وَكَانَ هُمْ أَحْلَامُ

أبو تمام



(١٢) (نادرُ الحُدُوثِ)

لم يعهد الدكتور (مدحت) مثل تلك العواصف الرملية العاتية أثناء سفره بسيارته "التويوتا" الحديثة الطراز.

د. مدحت ذلك الطبيب الناجح العائد منذ سنوات من بعثته العلمية الأخيرة إلى (الولايات المتحدة الأمريكية) اعتاد على حضور مؤتمر كليته الإقليمية في قلب الدلتا حيث نشأ وترعرع منذ أن كان طالباً. الطريق بدا طويلاً من موقع "الكومبوند" السكني الساحلي الذي اقتنى فيه مؤخراً شاليهها فاخراً على البحر الأبيض المتوسط محققاً أهم أمانيه وهو امتلاكه مكاناً يستجم فيه بعيداً عن صخب العمل الشاق والمتواصل في مشافه الخاص بالقاهرة. العاصفة الرملية ظهرت في أفق الطريق الصحراوي الساحلي كستارة صفراء هبطت من السماء كقدر حتمي يخفي الهيئة الخلابة للبحر الأزرق الفيروزي الصافي.

لم يعبأ (مدحت) بصعوبة المسير في هذا الطقس المرتبك على خلاف غيره من معظم سائقي السيارات المحترفين الذين فضلوا عدم السفر والانتظار حتى تنقشع العاصفة الهوجاء

الوافدة. رَنَّ هَاتِفُهُ النَّقَالَ الْمُتَّصِلُ بِسَيَارَتِهِ الْحَدِيثَةِ بِتَقْنِيَةِ
"البلوتوث".

جاء صوتُ المتحدثِّ معاتبًا

– مدحت.. كيف تسافرُ في هذا الطَّقْسِ السَّيِّئِ ؟

كيف تخاطرُ بنفسك بالقيادة في قلب الصحراءِ الصفراءِ

الممتدة دون رؤية واضحة ؟

أما زلتَ كما أنتَ متهورًا كعادتك ؟

أطلقَ (مدحت) قهقهةً عاليةً وهو يجيبُ صديقَ عمره وابنَ

قريته الصغيرة (عبد اللطيف الحفناوي) الخمسيني العمر

الذي تربى معه ، و زاملَهُ في الدِّرَاسَةِ حتى افترقا في الجامعة

ليصبحَ (مدحت) طبيبًا وأستاذًا جامعياً بينما (عبد اللطيف)

اكتفى بالثانوية العامة ليرعى أرضَ عائلته الشاسعة المساحة

التي ورثها عائلة الحفناوي لأجيالٍ متعاقبة منذ زمنٍ طويل.

– الزمنُ لم يغيركَ يا عبده أنتَ تخشى المغامراتِ بينما أنا

أدمنُها. ما فائدة الحياة السهلة والنمطية لا أعلم كيف تطيقُ

حياة القرية المملّة البطيئة الإيقاع ؟ كثرَ خيرك بصراحة!

– رد عبده في هدوءٍ كعادته:

– القرية مكانٌ للحياة الصحية بعيدًا عن جري الوحوش

الشرسة الذي تعيشون فيه يا أهل البندر. المهمُ توصل بالسلامة

صديقي العزيز و"ياريت تمر علينا" في البلد لأسعدَ بلقائك فأنا

علمتُ من أخيك الصغير أنك قادمٌ إلى البندر لحضور مؤتمر جامعي.

انتهت المكالمة لتتداعى لدحت مشاهدٌ مختلفة من الذاكرة البعيدة.

– أبٌ بسيطٌ من فلاحِي القرية فشلَ في الحصولِ على وظيفةٍ ساعي بريدٍ ينتظرُ ابنه الصغيرُ أمامَ المدرسة الابتدائية بعد انتهاء امتحانِ القبول كما كانت تسمى الشهادة الابتدائية في ذلك العصر.

سعادةٌ غامرةٌ أحاطَ الأبُّ ولدهُ المتفوقَ بها ليأخذه في رحلةٍ إلى البندر حيثُ السينما الصيفية التابعة للثقافة الجماهيرية وقتها كم كان العرضُ مُبهراً لصبيٍّ لم يُخرجْ من قريته البسيطة من قبل!

– مشهدٌ آخرُ تراءى له الأبُّ نفسهُ تعتريه سعادةٌ غامرةٌ لرؤية ولده بصحبة (عبد اللطيف) ابنِ عائلة الحفناوي من أكابر البلد. صداقةٌ وجدها بدايةً لتغيّر الحال وتبدل الأزمان. رنَّ هاتفه النقالُ مرةً أخرى وهو في حالةٍ عاليةٍ من الارتباك.

هذه المرة كان المتصلُ زوجته (ملك) والتي سافرت مؤخراً إلى القاهرة حيثُ ابنتهما (عاليا) قد أوشكت أن تضعَ حفيدهما الأول؛ ويجبُ أن تمكثَ بجوارها.

لم يعلم (مدحت) كيف سيصارع زوجته بسفره في تلك
الأجواء وهو من وعدّها بعدم السفر في مثل تلك الأجواء
والانتظار في الشاليه حتى تعود من العاصمة.
لم يشأ أن يجيب على الهاتف قبل أن يصل إلى وجهته. عاد
مرة أخرى إلى الذكريات البعيدة حيث اليوم الذي تقدّم فيه
لخطبة (ملك) من عائلتها العريقة الغنية وقتها، وكيف أن
تخرجه طبيباً لم يشفع له للارتباط بها، ولولا إصرارها على
الزواج منه وتحملها كافة الضغوط من قبل عائلتها مع وقفة
أخيها (عبد اللطيف) الحفناوي في صفّ زيجتهم لما تمت أبداً.
انقطع سيل المشاهد المتتابعة بمواجهة السيارة لتلك العاصفة
في أوجها.

ظهرت لمدحت أشبه بالأعاصير التي يشاهدها في نشرات
المنام في أصقاع العالم.

تسارعت ضربات قلبه بشكل لم يعتده هذا الجراح الجامد
الأعصاب، أدرك أن الأوان قد فات، ولا يمكنه العودة بعيداً
عن العاصفة التي تلتهم الطريق نحوه. السيارة تتقدّم في اتجاه
واحد بلا مركبات أخرى تسير بشكل مقابل؛ اتخذ قراره
في حركة خاطفة لم يتوقّف بل على العكس استمر بنفس
سرعته ليخترق بطن العاصفة الرملية الأصفر.

تنفّس (مدحت) الصعداء. عرف أن مغامرته هذه المرة

كانت غير محسوبة و تحولت الشجاعة إلى تهوُّر قد كاد يودي بحياته. نظر إلى ساعة يده ليتأكد من التوقيت والتاريخ حيث هو ميعاد انعقاد المؤتمر في منتصف مايو لعام (٢٠١٩) كادت الشمس أن تتوارى خلف السحب بالرغم من انتصاف النهار. ظهر الطريق الصحراوي أمامه مرة أخرى، ولكن ليس كما اعتاد عليه؛ الطريق أصبح طريقاً واحداً ذا حارتين، بينما البحر ظهر جلياً بعد أن اختفت كافة الإنشاءات المتعددة التي كانت تخفيه عمداً وقسراً بعد أن غزت تلك القرى السياحية ساحل المتوسط في بغي واضح على حرم البحر. لم يعبأ د. مدحت بهذا التغيير حيث كانت سعادته بمشهد البحر الخلاب المتحرر. اعتقد أنه ربما يرجع ذلك لإزالة الدولة للمباني في ذلك الجزء من الطريق الصحراوي الساحلي كمقدمة لمشروع سياحي واعد.

أخيراً اقترب من مدخل الطريق الزراعي، والذي يولد من ضلع الطريق الأصفر. تعجب (مدحت) من اختفاء العديد من المعالم الرئيسية لتلك المدينة الواقعة في قلب الدلتا. اختفت الأبراج الشاهقة، وحل محلها مجموعة من المباني المنخفضة الارتفاع والمحاطة بالجنانن الياقة بالأزهار الملونة من كافة الأصناف.

هنا توقف بالسيارة الحديثة ليحاول استبيان الأمر لقد زار

المدينة منذُ عام تقريبًا ، وكانت مختلفةً تمامًا عما يراه حاليًا .
دار حديثٌ بينهُ وبين نفسه كعادته في المواقف المحيرة
مثل تلك ” ربّما أكون قد ضللت الطريق إلى مدينة أخرى كيف
ذلك ؟

أنّها نفسُ المدينةِ وها هو نهرُ النيلِ يخترقُ قلبها
كعهده... ”

قرّرَ (مدحت) الذهابَ مباشرةً إلى قاعةِ المؤتمراتِ الخاصةِ
بالجامعةِ التي تنتمي إليها كليةُ الطبِّ التي تخرّجَ فيها .
أدركَ أنّه يسيرُ بشكلٍ صحيحٍ عندما رأى محطةَ قطارِ المدينةِ
الأثريةِ التي يمتدُّ عمرُها إلى أكثرَ من مائةِ عامٍ ، ولكنَّ محاطةِ
بالساعاتِ الرقميةِ الدائريةِ الشكلِ ، والتي تشبهُ تلكَ التي
رآها في إحدى أسفارهِ إلى بعضِ المُدنِ الأوروبيةِ .
ميدانِ المحطةِ اختلَفَ عما سبقَ خَلَّتْ جوانبُهُ من الصورِ
التي تملأُ جنباته للعديدِ من الشخصياتِ المؤثرةِ في المحافظةِ ،
أعمدةُ الإنارةِ تحملُ أعلامًا خضراءَ مختلفةَ الأحجامِ . تركَ الميدانَ
متوجِّهًا إلى مكانِ انعقادِ المؤتمرِ الطبيِّ حيثُ مقرُّ الجامعةِ في
وسطِ الأراضيِ الزراعيةِ للمدينةِ التي غزتها بقسوةِ الأبراجِ
الأسمنتيةِ في عشوائيةٍ تغطّصُ الطبيعيةِ الهادئةَ للريفِ .
سارَ مسافةً طويلةً خلالَ طريقٍ ضيّقٍ بينِ الأراضيِ
الزراعيةِ الممتدةِ عبرَ الأفقِ .

أدرك أخيراً أنه قد ضلَّ طريقه ولم يستطع الوصول إلى مقر الجامعة لم يفهم كيف له أن يضلَّ طريقه إلى مكان دراسته الذي قضى فيه عقوداً من الزمن قبل سفره للخارج في أول بعثة دراسية له بعد التخصص.

أكمل سيرة في الطريق نفسه حتى صادفته يافطة كبيرة مضيئة تشير إلى اتجاه قريته التي نشأ فيها قرية "الحفناوية" والتي كانت الموضع الوحيد الذي ظهر جلياً على خريطة جهاز "الجي بي إس" في موبايله النقال المتصل بشبكة الهاتف التي لاحظ أيضاً أن إشارتها أضحَتْ ضعيفةً إلى حدٍّ كبير بالرم من قوتها المعتادة على الطُّرُق الزراعية والصحراوية مع تغيُّر اسمها إلى اسم مختلف عن شبكة محموله الأساسية.

اقتربت السيارة من مدخل البلد. معالمها لم تكن كما عهدتها حديثاً حيث اختلفت كثيراً بفعل الزحف العمراني ولكن ظهرت هذه المرة واضحةً بشكل منظم عن ذي قبل ؛ بيوت القرية أقل عدداً وأكثر خجلاً في الارتفاع، وعاد قصر الحفناوي مرة أخرى لسابق عهده ليتصدَّر قلب القرية حيث الفخامة والصدارة بين بيوت القرية بعد أن كاد يختفي ويتوارى في خجل بين العمارات الشاهقة المتجرئة. أوقف (مدحت) السيارة على بُعد خطوات من مدخل القصر الذي بدت عليه هذه المرة علامات التجديد والتحديث، فاستعاد طريقه الذي

خَفَّتْ مع مرور السنين وتراصَّتْ أمامَه عددٌ كبيرٌ من السيارات
الفارِهَةِ الإنجليزِيَّةِ حديثَةِ الطراز والتي يبدو أنها حديثَةُ
الشَّراءِ.

ترك السيارةَ ليمشيَ خطواتٍ سريعةٍ إلى بابِ القصرِ العاليِ.
ظهرَ له على غيرِ عادةٍ عددٌ كبيرٌ من العاملينَ بالقصرِ من
خدمٍ وحرسٍ وهم يملؤونَ الحديقةَ الخارجيةَ الوارفةَ الأشجارِ
والزَّهورِ الفَوَّاحَةِ الرائحةِ أدركَ (مدحت) أنَّ صديقَ عمره (عبد
اللطيف) قد استطاعَ أخيراً تحويلَ هذا المكانِ الشائخِ إلى جزءٍ
يسير من سابقِ عهده من الأمجادِ البائدةِ.

قرَّرَ أن يتصلَ به بهاتفِهِ النقالَ ليهنئَهُ بذلكِ الإنجازِ الكبيرِ
قبلَ أن يطلبَ من الحراسِ أن يبلغوا صديقَهُ ساكنَ القصرِ.
بلمسةٍ سريعةٍ بحثَ عن رقمِ (عبد اللطيف) في الهاتفِ؛
بضعطةٍ زر على سطحِ الهاتفِ الأملسِ بدأَ الجرسُ يرن.

– ألوووو.... مين معايا

– معاك مدحت يا عبد اللطيف..

– عبد اللطيف مين يا أستاذ؟ النمرة غلط.

انقطعَ الاتصالُ ليتركَ مدحت في حالة دهشة عارمة.

لم يجد خياراً سوى أن يطلبَ من أحدِ العاملينَ بالقصرِ أن
يُبلِّغَ (عبد اللطيف) بتواجده في الخارجِ

– ممكن تبليغِ الحاج عبد اللطيف إنِّي متواجد بالخارج و

أريدُ التحدث معه.

– الحاج ؟ حاج مين يا فندم ؟ هل تقصد عبد اللطيف بك ؟
ابتسم د. مدحت لسماع كلمة (بك) بهذه الطريقة... شعر أنَّ
العاملَ يمازحُه... لذا قرَّر أنَّ يجاريه في هذا النوعِ الثقيلِ الظل
من المزاح.

– نعم.. أبلغ عبد اللطيف بك أنَّ د. مدحت (باشا) ينتظره
بالخارج

اندهش العامل من كلمات مدحت واندفع بسرعةٍ إلى الداخل
كالقذيفة لينادي على كبيرِ الخدم. خرج له هذه المرة رجلٌ
أسمُرٌّ من أصولٍ نوبيةٍ ويتحدثُ بلكنةٍ غريبةٍ ويطلبُ منه
الدخولَ إلى داخلِ القصر.

ارتسمت علاماتُ الاندهاش على وجه (مدحت) عندما رأى
القصر في حالةٍ مختلفةٍ تمامًا عما اعتادها عليه سابقًا... الأبهةُ
نفسُها والفخامةُ كأنَّ القصرَ قد عاد إلى الوراء في الزمن لأكثر
من نصفِ قرن.

الجدران تمتلئ بصورِ أفرادِ عائلةِ الحفناوي لأجيال
متعددة!

جلس (مدحت) في أحد الصالونات المذهبة المنتشرة في بهو
القصر. مرت ساعةٌ تقريبًا وهو يجلسُ وحيدًا في الصالون حتى
جاءه كبير الخدم لكي يسيرَ معه لإحدى الغرفِ بالقصر.

انفتح الباب الضخم ليدخل مدحت الغرفة ليجد (عبد اللطيف) الحفناوي يجلس أمام مكتبه. لم يكن هذا هو (عبد اللطيف) الذي يعرفه نعم هو نفس الشكل و لكن تبدلت هيئته. هذه المرة كان يرتدي بدلة سوداء أنيقة و لم يرتدِ الجلباب و العباءة كعادته ، وتغيّرت ملامح وجهه حيث اختفت اللحية البيضاء و لم يعد يمسك بمسبحة الصفراء والتي تنم على طابع صوفي زاهد.

باغته عبد اللطيف

– أهلا وسهلا يا دكتور... أي خدمة ممكن أقدمها لك في الحفناوية..

أدرك د. مدحت أن (عبد اللطيف) لم يتعرّف عليه... شعر لوهلة أنه ربما يكون في حُلْم... استعاد مدحت رابطة جأشه، وبادر عبد اللطيف بسؤالٍ.

– شكراً جزيلاً عبد اللطيف بك لحسن الاستقبال. أنا كنتُ فقط بسأل عن شخص من أقربائي يدعى (مدحت عlish) كيف يمكنني أن أجده ؟

اتسعت عينا عبد اللطيف لسؤاله عن مدحت. !

– قصدك مدحت ابن عم عlish عامل هيئة البريد..

رحمة الله عليه ده توفى وهو شاب في وباء الكوليرا اللي ضرب قرى مصر في الثمانينات من القرن الماضي.. وعلى فكرة

ده كان صديق طفولة عزيز عليًا جدًا لكن الأيام فرّقت بينا ؛ فهو للأسف بسبب ظروف عائلته المادية اكتفى بالابتدائية واشتغل في البريد مع والده، أما أنا فسافرتُ إلى الخارج لإكمالِ الدِّراسة الجامعية مع إخوتي... في كلِّ حال هكذا حال الدنيا يا دكتور لو أي خدمة ممكن أقدمُها ليك فالقصر مفتوحلك.

انتهى اللقاء ليتأكَّد د. مدحت أنه يغرقُ في أعماقِ حُلُمٍ أشبه بالثقبِ الأسودِ أو ربَّما غيبوبةٍ نتجت من حادثٍ سيرٍ.

ترك قصرَ الحفناوي وهو ينظرُ إلى أرجاءِ القرية بينما يسيرُ بسيارته وسطَ الزَّرَاعَاتِ التي تَعُجُّ بالمزارعين من الرجال والنساء يعملون على قَدَمٍ وساقٍ بينما تخلو القرية تمامًا من أيَّة مظاهر اعتاد أن يراها منذ فترةٍ من مَاقاه، وكافتيريات.

على مدخلِ البلد.. وقف بسيارته ليشعلَ سيجارةً على غيرِ عادته فهو لا يدخنُ إلا في ظروفٍ نادرةٍ للغاية..

حاول أن يفهمَ ما حدثَ منذ دخوله إلى قلبِ تلك العاصفة؛ حيث مرَّت ثوان معدودة كأنَّها أيامٌ ثقيلة. ذرات رمالٍ صفراء تدورُ حولَ السَّيارة على شكل موجاتٍ دائرية متسلسلة. استرعى انتباهَ الطبيبِ العالم وجودُ شعيراتٍ كهربائية تظهرُ كومضاتِ البرقِ في تلك الدوائرِ الرملية لتتحوَّل العاصفة إلى ما يشبه المَمَرِ الكهرومغناطيسي!

بعدها خرجتِ السيارة بعد ثوانٍ طويلةٍ ضاغطةٍ لتعودَ

مرةً أخرى إلى طريقها الممتدّ عبر الصَّحراءِ المُحاذيةِ للبحرِ
الأزرقِ ؛ حيثُ اتَّضحَ أنَّه قد وُلِدَ مِنْ رَحِمِ ثُقُبِ دُودِيٍّ بَيْنَ
الأبْعَادِ ، قَذَفَهُ إِلَى بَعْدِ آخَرِ مُوَازٍ لِعَالَمِهِ يَسِيرُ بِنَفْسِ الزَّمَنِ
ولكنْ مع اختلافِ الأحداثِ ؛ حيثُ هكذا افترضتِ النظريةُ
النسبية..

أدارَ د. مدحت راديو السيارة على البرنامج العامِّ لِيُعْلِنَ
المذيعُ عن إعلانِ هامٍّ...

”يهنئُ الشعبُ المصريُّ، والإذاعةُ المصريةُ فخامةَ المَلِكِ
(فاروق الثاني) حفظه الله ملكَ مصر ، والسودانِ بمناسبةِ
مولدِ الأميرِ الصَّغيرِ

(طوسون بن فاروق) في هذا اليومِ الميمونِ من منتصفِ مايو
لعام (٢٠١٩) م. داعينَ الله أنْ يحفظهُ الله هو، وإخوته من كلِّ
سوءٍ.

”الله..المَلِك..الوطن ”

تمت

حول المجموعة القصصية (سلوفان) للكتاب الأستاذ الدكتور/ عمرو منير تعقيب بقلم د.قدريّة سعيد

تحدث الكثير من عمالقة الفكر والأدب حول ضرورة توافر المتعة الأدبية في النصوص الأدبية، ليست باعتبارها هدفا في حد ذاته بل وسيلة لا غنى عنها لإدراك المضمون السردي من البداية وحتى نهاية العمل الأدبي. وهنا حققت المجموعة القصصية (سلوفان) تلك المتعة الأدبية من خلال هذا التنوع السردى والقيمي حيث يطوف بنا الكاتب في العديد من الأمكنة والظروف المتباينة ما بين التنقل داخل المكان الواحد أو السفر والهجرة حتى الانتقال من الحياة إلى الموت مؤكداً أن حياة البشر دائماً في حالة ترحال وعدم استقرار.

يقدم لنا الكاتب سطوراً بلغة عربية رشيقة تصطبغ القارئ للتنقل عبر إحدى عشرة قصة يجمع بينها ذلك الخيط الرقيق لحال الإنسان، فهو قد يستقر في بلد آخر غير وطنه فترة ليست قليلة من حياته مثل شخصية أبو حمد في القصة الأولى (دام عزك يا وطن) ويحصل على الإقامة بها بل ويحب بلده الجديد وكأنها وطنه الأم ويشارك في الهتاف بحياتها أثناء تظاهرها

شبابية للأمير الخليجي معبرا عن عرفانه بالجميل على الرغم أن الضابط المسئول عن أمن المسيرة تشكك فيه لأنه ليس من أهل البلد لكن صدق حديث أبو حمد جعل الضابط يطمئن لإخلاصه وحبه لوطنه الجديد.

في قصة (قبر ذهب) يرسم لنا الكاتب كلماته المعبرة بمنتهى الصدق عن حالة الحزن العميق لهجرة أهل النوبة.. يستهل القصة بجملة (جلس القرفصاء هذا الشيخ السبعيني العمر...) والترحال في الصندل الحديدي الذي امتلأ عن بكرة أبيه بالبشر. شعور بالمرارة والحزن العميق لعملية التهجير القسري لهؤلاء البشر يرسمها الكاتب بمصادقية خالصة في وصف معاناتهم والوعود الكاذبة بالعودة أو بضمنان حياة كريمة لهم.

في هذه المجموعة يستخدم الكاتب أسلوب المفاجآت في إتمام حكاياته، بل والغزيرة بالقيم والمعاني النبيلة، وهنا يستمر التشويق وتكتمل المتعة حتى نهاية القصة، فنجد في قصة (باب خلفي)

وهنا البطل طبيب جراح عائد من بلاد (العم سام).. الطبيب المتفاني في مهنته، يعطيها كل ما يملك من خبرة لخدمة المرضى.. لكن هناك هواية جميلة عليه أن يمارسها بعد قضاء يوم شاق في المشفى.. وأجد في تلك القصة رسالة من الكاتب حول تعظيم الوقت وعدم إهداره، لكن المهم هو الجمع ما بين الحياة

المهنية ومتطلباتها كاملة وبين حقوقنا الشخصية تجاه أنفسنا .
ونستمر في قراءة العمل وينتقل القارئ من قصة إلى أخرى ،
القيم غزيرة دون مبالغة لكنها تأتي في سياق العمل بشكل
طبيعي ومناسب للسرد في كل حكاية على حدة ، في قصة (طيف
ذكرى عائلية) يروي لنا ذلك الرجل المسافر في القطار ذكرى
لم ينسها رغم مرور سنوات طويلة عندما شاهد وجه امرأة
بالقطار .. أجهد ذاكرته كي يستعيد حقيقة ذلك الوجه .. نعم
إنها ذكرى مفعمة بالحياة وبالفخر من عطاء تلك المرأة ، إنها
رسالة الحب والمثابرة والوفاء .

وبينما تتسم المجموعة بالتنوع المكاني ما بين بلاد الغرب
والشرق ، نجد أيضا دور التنوع الثقافي في رسم أقدار البشر
والذي يحسم الكثير من الأمور الحياتية . نجد في قصة (أعذراه
فقد نسى) إصرار الأسرة المهاجرة إلى أمريكا من العودة إلى
إسبانيا لدفن الوالد في البلد الأم مع باقي عائلته مع الخضوع
لكل الطقوس الدينية التي عاش فيها الأب في مسقط رأسه . وفي
قصة (سلوفان) نوع آخر من التباين الثقافي واختلاف العادات
والتقاليد والموروثات الشرقية واكتساب عادات أخرى من حياة
الغرب . هذا التباين الذي قد يسبب إشكالية اجتماعية لا
يستطيع أن يتقبلها المهندس المصري رغم حياته وتعليمه في
(وادي السليكون الأمريكي) ، فلديه ثقافة شرقية عميقة من

الجدور وبين عادة التي عاشت وتشربت من الحياة الأوروبية بكل ثقافتها وتمرد لها. وقصة (سلوفان) عنوان المجموعة القصصية تستحق أن يبني عليها الكاتب رواية طويلة غزيرة بالمشاعر والتباين القيمي والثقافي والتعاطف مع الشخصيات التي أحببناها في لحظات ضعفهم حتى وإن كان الانفصال هو الحل النهائي لحسم كل قلق وعناد.

في قصة (فرصة) لم يبعد قلم الكاتب عن الأحداث الجارية للحرب الضروس الدائرة هنا وهناك وعمليات الطرد القاسية وفقد الأهالي لوطنهم بل وإجبارهم على عدم تخطي الحدود بمعنى أن أقدام الشعب المطرود من أرضه على الحدود ما بين الوطن والغربة وأهوال الحروب ومصير البشر العزل الهاربين من ويلاتها، وفي خضم تلك الأحداث يستفيد منها المحللون السياسيون ويزدهر دورهم ويكدحون ذهنهم وخبراتهم للوقوف على حال الوضع الراهن في العالم وفي الأراضي المحتلة. أعجبني جدا حديث الكاتب عن السياسي الكهل فيقول عنه (انحسرت الأضواء من حوله فأصبح هذا المفكر الكبير في طي النسيان كشمس ساطعة غطاها قمر الخسوف الطاعي..) استهل الكاتب المجموعة القصصية بأبيات من الشعر، كل قصة تبدأ بأبيات من الشعر تم اختيارها بعناية تعبر عن المشاعر الرقيقة للآخر وحب الوطن بل وحركة الحياة الدائمة الممتدة.

الكاتب في سطور

- الاسم/ عمرو منير محمد صبري
- أستاذ مساعد لطب وجراحة العين كلية الطب جامعة سوهاج.
- كاتب روائي، وقاص.
- عضو النقابة العامة لاتحاد كتاب مصر.
- عضو عامل بنادي أدب سوهاج.
- عضو نادى القصة المصري.
- صدر له العديد من المؤلفات وتنوعت بين الرواية، والقصة القصيرة، والنقد الفني.
- مؤلفاته:

- رواية مغارة الجبل الغربي ٢٠١٩.
- مجموعة قصصية فرح ابن العمدة ٢٠٢٠.
- سينما يوليو...قراءة نقدية ٢٠٢٠.
- لعبة العروش وعلمنة الفن ٢٠٢١.
- رواية حفرة المساحيط ٢٠٢٢.
- إطلالاتٌ مختارةٌ ٢٠٢٤.
- فلك نوح مجموعة قصصية " خيال علمي " ٢٠٢٤.

– نشرت أعماله في العديد من الصحف والمجلات منها
(وجريدة أخبار الأدب، وجريدة القاهرة، ومجلة أدب)
– نوقشت أعماله في العديد من القنوات الإذاعية، والفضائية
منها (قناة النيل الثقافية، والإذاعة المصرية إذاعة البرنامج
الثقافي، وجريدة أخبار الأدب، وجريدة القاهرة، ومجلة
أدب، ونقد ومنصة "بانداروش" للأعمال الأدبية المسموعة على
منصة "يوتيوب وأبل ميوزك" وأنغامي.

المحتوى

شكر وتقدير	٤
دام عزك يا وطن	٧
أعذراه فقد نسي	١٣
قبر ذهب	٢١
شاشات	٣٢
باب خلفي	٣٩
فرصة	٥٢
سوق	٥٨
شبكة	٦٨
دموع ساخنة	٧٨
سلوفان	٨٥
طيف ذكرى عائلية	٩٤
نادر الحدوث	١٠٥
تعقيب بقلم د/ قدرية سعيد	١١٩
الكاتب في سطور	١٢٣
المحتوى	١٢٥

طبع بمطابع دار المعارف

